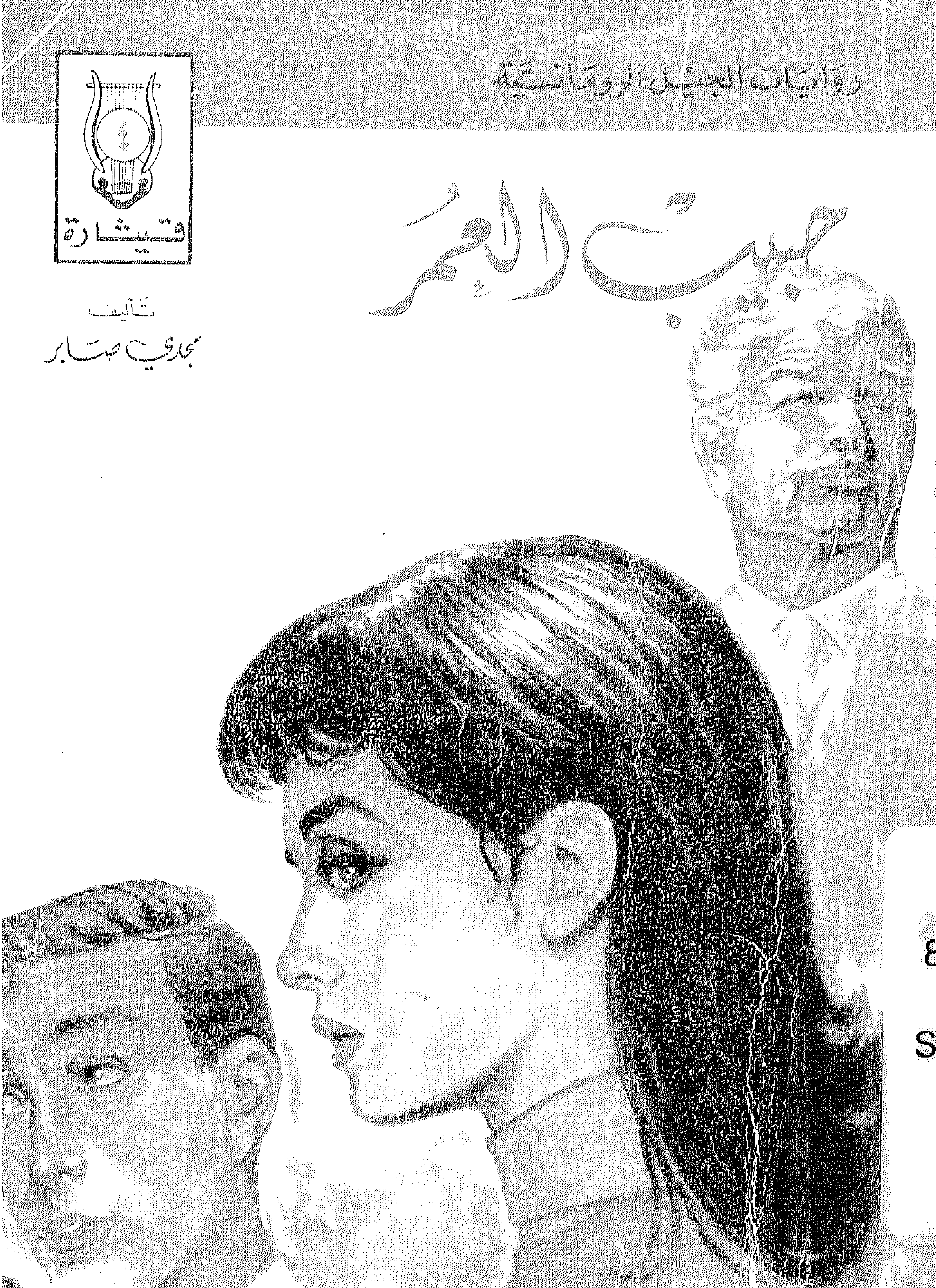
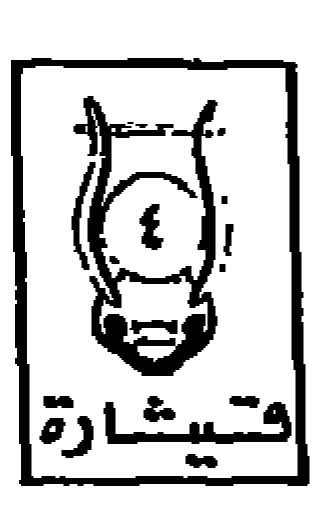

روايات الجيل الرومانسية
قيثارة
حبيب العمر
تأليف
مجدي صابر

حبيب العمر



روايات الجيل الرومانسيّة



حبيب العمر

تأليف

مجدي صابر

دار الجيل

بيروت

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

« وفاء »

ساعة باكملها ما تزال تفصل عن العاشرة مساء ـــ موعد الانصراف ـــ.. الوجوه تعبة مرهقة يكاد العرق ينضح منها برغم برد فبراير القارس .. صوت ماكينات التريكو التي اصطفت في المشغل المتسع يتعالى في سمفونية صاخبة ذات ضجيج لا ينتهي ..

ثلاثة صفوف من الماكينات رصت متوازية، كل صف منها يحوى عشر ماكينات كبيرة، جلست إلى كل منها فتاة راحت تتعامل مع ذراع الماكينة يمنة ويسارا في جهد آلي محموم .. وربما يتعقد خيط أو ينقطع فتضيع دقائق في إصلاحه، ولكنها على أي حال فرصة لالتقاط الأنفاس وإراحة الذراع من عملها الروتيني الذي يسبب خدرا بعد وقت فلا تعود صاحبته تحس بحركته ..

ألقت وفاء نظرة مثقلة بالتعب، ربما للمرة العشرين منذ أقل من ساعة نحو ساعة الحائط الكبيرة المعلقة في نهاية صالة المشغل .. تجاوزت التاسعة بدقائق قليلة ..

عادت تواصل عملها بإحساس بطيء بالزمن ..

وجهها برغم شحوبه نابض بالجمال .. تقاطيعها دقيقة مليحة .. جبهتها ضيقة وخداها صغيران مشربان بحمرة خفيفة، أنفها صغير جميل تخضب باللون الأحمر بسبب البرد.. فمها ضيق وشفتاها حمراوان شهيتان بدتا وهما مطبقتان كفراولة ناضجة شقت نصفين .. عيونها قليلة الغور شديدة الصفاء بلون هو مزيج من زرقة البحر وعتمة الليل .. شعرها أسود فاحم ينسدل فوق كتفيها فتعقصه دائما في شكل ذيل حصان طويل. قدها متناسق أخفته ملابسها الرخيصة .. عادت مرة أخرى تلقي نظرة إلى ساعة الحائط الكبيرة وتنهدت .. أصعب ما في عملها هي تلك الساعة الأخيرة.. تتباطأ وتتلكأ وتنقضي دقائقها بضعف من أي وقت آخر..

كانت تحس بارهاق شديد لا حد له، وتمنت لو أنها

كانت بفراشها تغمض عينيها راحة وتغرق في النوم الدافئ المريح.

ولكن هيهات، وحتى لو أرادت الذهاب الآن فإن نصف إنتاج اليوم سيخصم منها بلا شك، فتعليمات صاحبة المشغل ــ الذي ورثته عن زوجها ــ صارمة بشأن مواعيد الانصراف، وهي لا تعترف بمرض أو تعب... فعلى حد تعبيرها: الشغل شغل، ولا مكان لديها للمرفهات.

واصلت وفاء عملها.. آلمها ظهرها لكثرة انحنائها على الماكينة العريضة، أوشك « البلوفر » أن يكتمل فلم يتبق إلا كمه الثاني، ولو جاهدت قليلا لأنهته قبل العاشرة ومجيء صاحبة المشغل ست « كريمة » لتحتسبه لها ضمن إنتاجها الأسبوعي ..

الليلة هي ليلة السبت، موعد القبض لانتاج الأسبوع السابق كله ..

لو كانت ست كريمة تسمح لها فقط بأن تغادر المشغل في التاسعة كل يوم لهانت أمور كثيرة، وقتها تستطيع أن تتجه من مكان المشغل بالزمالك إلى بولاق الدكرور حيث تسكن مع أمها المريضة فتصل خلال نصف ساعة، ويمكنها

عندئذ أن تقوم بتنظيف مسكنها ـــ وهو ليس إلا حجرة صغيرة ـــ ولكنها بحاجة لتنظيف على أي حال، خاصة ووالدتها المريضة لا تستطيع مغادرة الفراش إلا بمساعدة، ثم تقوم بإعداد العشاء والنوم مبكراً .. لتعود وتستيقظ وتكون في المشغل قبل العاشرة صباح اليوم التالي ميعاد بدء العمل في المشغل..

ولكن صاحبة المشغل رفضت ذلك من قبل مرتين .. وهي لا تستطيع أن تطلبه منها مرة ثالثة لأنها تعرف الرد مقدّما.

التفتت إليها الفتاة الجالسة إلى الماكينة في الصف على يسارها قائلة : وفاء .. ما بالك ؟

ألقت وفاء نظرة شاحبة نحو الفتاة وقالت بوهن : إنني متعبة .. في أشد حالات الانهاك.

ألقت الفتاة نظرة نحو الساعة الكبيرة وقالت : تبقى أربعون دقيقة .. هانت .. وأكملت بلهجة متساءلة : الديك أعمال كثيرة بالبيت ؟

هزت وفاء رأسها بصمت، عاودت الفتاة سؤالها : وأمك ؟

ردت باقتضاب : لا جديد.

ــ ربنا يشفيها.

وعاد صوت الماكينات يصم آذانها ..

لو كانت فقط أكملت تعليمها بعد الثانوية العامة ودخلت الجامعة.

كانت تتمنى لو أنها التحقت بكلية الاعلام. وبعد التخرج تصبح مذيعة أو صحافية أو مِهَناً أخرى كثيرة جميلة طالما تمنتها وحلمت بها.

ولكنها لم تزد عن أن تكون عاملة في مشغل تريكو ..

كان يمكن أن يكون لحياتها مسار آخر لو لم يغادر دنيا الأحياء والدها العامل البسيط بعد نجاحها في الثانوية العامة مباشرة .. وأقعد المرض والحزن أمها فما عادت تستطيع مغادرة الفراش إلا بجهد مستحيل.

كان أبوها يقول لها : أتمنى أن أراك طبيبة يا وفاء .. سأعمل ليل نهار يا ابنتي لأوفر لك كل متطلبات دراستك، ويوم تحققين حلمي سأفتخر بك بين الناس وأقول إني والد الدكتورة وفاء.

ولكن القدر لم يمهل والدها الطيب .. ولا أمهلها هي ..

كم كانت تحب أباها .. في طفولتها كان يحملها فوق كتفيه ويخرج بها ليتنزهان، فيشتري لها كل ما تتمناه من رغبات صغيرة. وعندما كبرت ولم يعد من الممكن أن يحملها والدها فوق كتفيه، كانا يخرجان متشابكي الأيدي .. تلهو وتضحك وهي تعبث بخصلات شعره البيضاء .. ويذهب بها إلى الحدائق والمزارات ..

ولم يمهلها القدر لترد لذلك الوالد الحنون عطفه وحنانه .. تمنت لو أنها استطاعت دخول الجامعة وأنهت دراستها في غمضة عين وتوظفت لتريح والدها من عناء عمله اليدوي البسيط ..

تمنت لو أنها رسمت السعادة فوق ملامحه يوماً، كما ملأ حياتها بالهناء والفرح وهي طفلة وصبية ..

ولكن القدر لم يمهلها وحرمها من أجمل ما صبت إليه ..

وها هي تسعى وتشقى لأجل لقمة العيش لها ولأمها .. وقائمة الأدوية التي لا تنتهي للأم المريضة.

وغداً الأحد اجازتها من المشغل..

ولكن لا راحة .. فغداً تقوم بكل أعمال البيت من غسيل ونظافة، ثم تصطحب أمها إلى الطبيب لتطمئن على حالتها،

وعندما تعود بها يكون اليوم قد انتهى وتبدأ الدورة من جديد.

وهي لا تشكو .. أو تلعن حظها .. فبقلبها طيبة وحنان يتسعان للعالم كله .. تسامحها لا نهاية له حتى مع داليا ابنة صاحبة المشغل التي تتعمد جرحها وإيلامها كلما زارت المشغل ..

تساءلت ذات مرة، لماذا تفعل بها داليا ذلك، فأجابتها إحدى فتيات المشغل المجربات: أنها تغار منك.. أنت أجمل منها.

أدهشها الرد .. هل هي أجمل من داليا ؟

داليا التي تتزين بالعقود والأساور والخواتم الماسية، داليا التي لا ترتدي إلا أحدث ما خطته الموضة، داليا التي لا تظهر للناس إلا في أبهى زينتها وكامل جمالها.

داليا التي تدرس بكلية الاعلام بالسنة النهائية ؟؟

كيف تكون أجمل منها إذن ؟

أي جمال لها يمكن أن يثير حسد فتاة مثل داليا لم تر من شقاء الدنيا وحرمانها شيئاً ..

أي جمال تمتلكه هي يثير غيرة داليا ؟

وحتى لو كانت جميلة .. أو جميلة جداً .. فما قيمة جمالها إن لم يشفع لها في حياة أفضل .. هل منع جمالها وفاة أبيها او مرض أمها .. هل ساعدها جمالها أن تلتحق بكلية الاعلام وتحقق أغلى أمنياتها.. هل خفف عنها جمالها شقاء حياتها وجدب مشاعرها ؟

ما كانت قيمة الجمال بحياتها.. لا شيء.. بل لعله كان نقمة ووبالاً عليها، فهي هدف لمعاكسات ومضايقات في الطريق لا حد لها ممن لا عيل لهم سوى التسكع والتعطل .. وحتى عم جابر العجوز صراف الأجور في المشغل، كان يأكلها بنظراته وهو يعد لها أجرها في نهاية كل أسبوع، ويتعمد أن تلامس أصابعه المرتعشة المعروقة أصابعها وهي تتلقى منه الجنيهات القليلة.

أهذا هو جمالها الذي تغار منه داليا .. التي منحها القدر كل شيء جميل في حياتها.

العاشرة إلا الربع ..

ظهرت الست كريمة في مدخل المشغل .. رمقت الفتيات بنظرة متفحصة .. وبدت من خلفها داليا، رشيقة جميلة باهرة الأناقة، ينسجم عقدها الأحمر مع لون التايير

الصوفي وحذائها الثمين.. وحتى حقيبتها بنفس اللون..

شاهدت وفاء مثل هذه الحقيبة بأحد محلات الحقائب.. وتذكرت أن ثمنها خمسون جنيها.

تنهدت وفاء، ان أجرها هذا الأسبوع أربعون جنيها .. فقط لو لم تفاجأ بأي خصومات قد تنقص منه جنيهان أو ثلاثة .. إذن لأمكنها شراء روشتة دواء أمها كاملة وتسديد إيجار الحجرة ..

ـــ وفاء ..

كان صوت داليا عاليا، غطى على ضجيج الماكينات .. رمقتها وفاء بصمت. أشارت لها داليا بأصابع منمقة شديدة الاعتناء وقالت لها: احضري عينات الخيوط الجديدة من حقيبة السيارة.

لم تناقشها وفاء .. خرجت عن الصف في صمت واتجهت خارجة وعيون بقية الفتيات تتبعها في قليل من الاشفاق ..

أما داليا فرمقتها بنظرة ساخرة منتشية، كطفلة تلهو بدمية لا يشاركها في ملكيتها أحد. في الخارج كان الجو سيئا .. الرياح الباردة ترجف البدن .. أحكمت وفاء وشاحها

الصوفي حول كتفيها، ولكن فستانها الخفيف لم يفلح في صد هجمات البرد القارسة..

كانت سيارة الست كريمة واقفة أمام مدخل المشغل .. طرازها حديث فاخر برغم أنها ــ الست كريمة ــ كانت دائما تزعق في العاملات وتقول بأنها تدفع لهن من جيبها، وأنهن قد خربوا بيتها بكسلهم وإهمالهم وأنها بسببهم ستغلق المشغل قريبا.

فتحت الحقيبة الخلفية للسيارة وشاهدت عشر بكرات لخيوط صوفية ناعمة، كانت وفاء تعلم أنه ممنوع استيرادها .. ولكن للست كريمة طرقها في جلب الأشياء.

حملت البكرات فوق ذراعيها وأسندتها إلى صدرها واتجهت صوب حجرة الادارة، لم تستطع فتح الباب فاقترب منها عم جابر الصراف فاتحاً فمه عن ابتسامة كريهة، وهو يمد يديه كأنما يساعدها في حمل بكرات الخياطة من فوق ذراعيها فتراجعت للخلف خطوة، وهي ترمقه بنظرة غاضبة محذرة.

رمقها العجوز بنظرة ثعلبية ماكرة وقال بفم سقطت

نصف أسنانه : سأضيف إلى إنتاجك الأسبوعي خمس قطع كاملة .. ولا تعامليني بهذه القسوة.

رمقته بنظرة احتقار .. تحايلت حتى فتحت الباب بحمولتها الثقيلة ودخلت. قالت لها كريمة : ضعي البكرات هنا يا وفاء.

وضعتها حيث أشارت كريمة .. كادت تنصرف عائدة لعملها فأوقفتها داليا بلهجة ساخرة : انتظري .. ربما نحتاج شيء آخر.

وقفت في صمت .. لم يدعها أحد للجلوس .. منعت دموعها المحبوسة من أن تفك قيدها.

التفتت كريمة إلى جابر الصراف وقالت له : هذه الخيوط الجديدة ثمنها مرتفع، وفي الوقت الحالي لا أستطيع رفع أسعار منتجاتنا أخبر الفتيات أننا سنخفض الأجر عشرين قرشاً عن القطعة الواحدة .. وأخبرهم أيضاً أن الخميس القادم اجازة من العمل لأننا سنقيم حفل خطوبة داليا في المساء.

ارتسمت ابتسامة نفاق واسعة فوق وجه العجوز الثعلبي وهتف : ألف مبروك يا ست كريمة .. مبروك يا داليا

هانم .. عقبال الشهادة الكبيرة والزواج .. وأكمل وهو يرمق وفاء بنظراته النهمة : سأذهب لأحاسب الفتيات عن أجرهن الأسبوعي. وخرج الرجل .. ألقت وفاء نظرة إلى ساعة كريمة الذهبية فوجدتها تشير للعاشرة تماما ..

انتابتها الحيرة، وقالت لصاحبة المشغل برجاء : ألا يمكنني الانصراف يا ست كريمة ؟ رفعت إليها كريمة عيونا متساءلة، وهتفت بها داليا بغضب : أخبرتك من قبل ألا تنصرفي فربما نحتاج شيئا.. وجهزي نفسك مع فتاتين اخريين يوم الخميس للمساعدة في تجهيز المأكولات لضيوف حفل الخطوبة.

لم تنطق وفاء وشاع في ملامحها تعبير حزين. وبلهجة تشيع بها الشماتة والسخرية أكملت داليا : اذهبي وجهزي لنا شاياً.

مضت وفاء في تثاقل نحو الركن الضيق بالحجرة الذي يستخدم لتجهيز الشاي والقهوة وانهمرت دموعها، وكادت تشهق ببكاء مرير ولكنها تمالكت نفسها فما كانت لتبكي أمام مخلوق، خاصة داليا .. وبعد دقائق عادت تحمل لها الشاي ووقفت تنتظر بصبر.

فقط لو كان ممكناً أن تحصل على عمل في مكان آخر .. ولكنها كانت تعلم علم اليقين وقد جربت بنفسها العمل في أي مكان آخر حيث تكمن الذئاب بانتظار الفريسة، وهي في نظر الكثيرين فريسة لا يمكن التغاضي عن جاذبيتها وجمالها برغم شحوبها ومظاهر الفقر البادية عليها ..

وهي عاشت عمرها كله تصون كرامتها وشرفها .. ولذلك كان عليها أن تتمسك بالعمل في المشغل وإلا كان مصيرها الضياع، أو وفاة الأم المريضة إذا انقطع عنها الدواء. بعد نصف ساعة عاد الصراف بابتسامته الواسعة الكريهة ليخبر صاحبة المشغل بأنه أعطى الفتيات أجورهن وصرفهن ..

وأدركت وفاء من ابتسامته الخبيثة أنه اقتطع لنفسه جزءا من هذه الأجور لنفسه تحت شتى المسميات .. أو تحايلاً وسرقة وبلا حاجة إلى مسميات.

كريمة : اعط وفاء أجرها لتنصرف.

فتح الرجل حقيبته الصغيرة وعد لها ورقتين من فئة

العشرة جنيهات، وورقة من فئة الخمسة، وجنيهان وستة قروش مدها قائلاً : ها هو أجرك.

أمسكت وفاء النقود مذهولة، كان إنتاجها يزيد عن ذلك الأجر كثيراً فهتفت به : لقد انتجت عشرين قطعة وكل قطعة أجرها جنيهان و ..

قاطعها الرجل بنظرة خبيثة ماكرة : إن قطعتين من قطعك أعادهما المشتري وقال أن بها عيوب، هذا بالاضافة إلى تأخرك يومين صباحاً في هذا الأسبوع ..

قالت ذاهلة : كل ما تأخرته هو عشر دقائق.

رد بلهجة خبيثة : التأخير هو التأخير أياً كانت مدته .. وعلى هذا فأنت ترين أننا لم نظلمك في أجرك.

رمقتها داليا من الخلف بابتسامة واسعة توحي انها كانت طرفاً في المؤامرة. امسكت وفاء بنقودها بأصابع مرتعشة، تحطمت خططها وتناثرت أمنياتها .. ترى أي الأشياء ستتخلى عنها بسبب ما نقص من أجرها ؟

وكانت نظرة واحدة منها لكريمة لتدرك أنها لن تقف

في صفها، وجاء صوت داليا الساخر يقول: إن لم يعجبك أجرنا فابحثي عن مكان آخر لتعملي به.

لم تنطق، وغادرت الحجرة وقد عادت دموعها تتندى فوق وجنتيها ..

ولفحها الهواء البارد في الخارج فاستسلمت له بصمت .. تأخر الوقت بها وكان عليها أن تبحث عن وسيلة سريعة تقلها للمنزل .. لا يمكنها أن تغامر بركوب تاكسي قد يقتطع من أجرها جنيهين، كما أنها لا تستطيع أن تتجاهل مخاطر ركوب تاكسي وحيدة في مثل هذا الوقت المتأخر ..

انتظرت الأتوبيس دقائق فلم يأت .. استسلمت لقدرها في العودة سائرة، احكمت وشاحها حول كتفيها وشرعت في السير بالطريق البارد الخالي ..

بدأت السماء تمطر قليلا فلم تحاول أن تحتمي من رذاذ المطر .. كان بجوفها حزن مرير هائل وكانت بحاجة إلى ما يطفئه، حتى لو كان قطرات مطر قد تصيبها بالبرد.

لم تتمالك نفسها .. أطلقت سراح مشاعرها التي كبتتها

طويلا .. شهقت بكاء مرير ونشيج مكبوت .. ارتجف بدنها كله مع زفرات عينيها ..

الى متى يمكنها التحمل .. إلى متى ستعيش هذه الحياة القاسية .. ألا يكفيها حياتها التي توقفت في منتصف طريقها بلا أمل في المستقبل ..

لماذا تتعذب وتتألم، حتى بدون أن يكون هناك اي ذنب ارتكبته لعذابها ..

لماذا يقسو عليها القدر بهذا الشكل فيسلب منها شبابها ومستقبلها وأغلى أمانيها، وحتى ما تبقى لها يُصر على أن يزيده شقاء وإيلاماً ..

مسحت دموعها وهي تحس أن نفسها المضطربة قد هدأت قليلاً ..

كان الشارع لا يزال عريضاً ممتداً .. زادت من خطواتها لتنهيه هرباً من المطر الذي صار كالسيل ..

فجأة برز أمامها على البعد ضوء كشاف سيارة باهر .. واندفعت السيارة نحوها بكل قوتها ..

جمدت كالتمثال في مكانها .. أحست بالشلل ولم تقدر

حتى على الصراخ أو تقوى على الحركة. واقتربت السيارة كالسهم المارق، وبدا أنها ستطيح بها وتقضي عليها لساعتها .. ولكن السيارة انحرفت عنها في آخر لحظة لتصدمها صدمة خفيفة وتلقيها على الأرض، واندفعت السيارة نحو شجرة عريضة بالجانب الآخر من الطريق وارتطمت بها في عنف شديد.

« مصادفة غير متوقعة »

أفاقت وفاء من صدمتها سريعاً .. كان هناك إحساس هائل بالألم في ساقها، وفي لحظة ضاع إحساسها وهي ترى السيارة تصطدم بالشجرة الضخمة في عنف .. نهضت صارخة، واندفعت نحو السيارة المحطمة فشاهدت بداخلها موضع مقعد القيادة شاباً لا يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره وقد انكفأ بوجهه فوق عجلة القيادة وسال خيط رفيع من الدماء من جبهته فوق خده الأيسر ..

صرخت وفاء كالمجنونة لينجدها إنسان ما .. ولكن الطريق كان مقفراً خالياً، وابتلع صوت المطر المتساقط بعنف صدى صرخاتها ..

اندفعت بفزع تحاول فتح باب السيارة .. كان الباب مغلقا بقوة بعد أن انبعج للداخل .. لم تيأس وراحت تواصل

جذبه بقوة لم تعهدها في نفسها من قبل .. أخيرا انفتح الباب .. وأسرعت تجذب الشاب كالمجنونة إلى الخارج .. كان ثقيلا وكانت هي واهنة ضعيفة منهكة .. ولكنها أحست بقوة خارقة تدب في ذراعيها فواصلت جذبها للشاب إلى الرصيف الآخر .. وما كادت تمدده فوقه وتلتقط أنفاسها حتى انفجرت السيارة المحطمة وتحولت إلى كتلة من اللهب ..

احتضنت وفاء الشاب بلهفة كأنما تقيه من ألسنة النار القريبة، وتأوه الشاب متألماً وهو غائب عن وعيه .. تشبثت عيناها به .. انطبعت ملامحه بقوة في عينيها .. خيل إليها أنها تعرف صاحب هذا الوجه منذ سنوات بعيدة .. تشعر وكأنه قطعة منها لا تستطيع التفريط به .. كأن حياتها متوقفة على حياته ونجاته، وكأن تأوهاته وخز أشواك في صدرها ..

وتلفتت حولها في لهاث شديد .. فلا بد من نقله إلى أقرب مستشفى .. وكانت هي عاجزة .. وحيدة .. ضعيفة .. كشأنها دائما.

لمعت كشافات سيارة في الاتجاه المضاد تحت ستائر

المطر المنهمر .. قفزت إلى الطريق وراحت تصرخ للسائق المندفع، توقفت السيارة على بعد سنتيمترات قليلة، وعندما شاهد قائدها السيارة المحترقة والجسد الممدد على الرصيف الآخر أدرك ما حدث، وأسرع ينقل المصاب ويمدده فوق المقعد الخلفي، وقفزت وفاء الى السيارة وقد تناست كل آلامها وهتفت بالسائق : أرجوك .. خذه إلى اقرب مستشفى. واندفعت السيارة تحت سيل المطر المنهمر تبحث عن أقرب مستشفى.

كان الشاب لا يزال يئن بصوت ضعيف ومزيد من الدماء ينسال فوق جبهته، وانتبهت وفاء الى ملامحه.. كانت له جبهة عريضة قوية وأنف شامخ مستقيم وفك قوي .. وشعره الأسود القصير قد تبلل بالماء ولزوجة دمائه ..

ووجدت نفسها تبكي لمشهده، تبكي وهي تمسح جبهته من الدماء بمنديلها ولكن الدم ظل يخضب الجبهة كلما مسحتها .. وتمنت لو كانت آلامه آلامها .. لو أنها حملت عنه جزءا مما يعاني .. لو أنها فعلت أي شيء لتخفف من أوجاعه وجراحه .. كأنه عزيز غالٍ عليها .. أب أو

إبن أو حبيب .. برغم أن قلبها البكر لم يطرقه إنسان من قبل.

ووصلوا إلى المستشفى أخيراً .. وفي دقائق كان الشاب المصاب يرقد في حجرة العمليات ..

والتفت السائق إليها قائلا : يجب أن تعودي لمنزلك، يكفي ما قمت به حتى الآن .. لقد وجدت عنوان الشاب ببطاقته الشخصية وسأذهب لاستدعاء أقاربه وإعلامهم بما حدث.

غمغمت بصوت يقطر بعرفان الجميل : أشكرك .. لقد أنقذت حياته.

قال باسماً : أنت فعلت ذلك قبل .. هيا لأوصلك لمنزلك فأنت تبدين متعبة بشدة.

لم تجادله، ولم تخش أن يكون أحد الذئاب المندسين في أجساد الكثير من الرجال، كان قلبها يقول لها بأن ذلك الرجل الذي فعل خيراً وأنقذ حياة الشاب المصاب لا يمكن أن تقترف يداه إثماً ..

أوصلها حتى المنزل .. لم يكن باستطاعتها دعوته للدخول .. وانطلق بسيارته عائداً للزمالك إلى عنوان الشاب

المصاب. وراقبت وفاء السيارة حتى اختفت عن عينيها.
اتجهت إلى مدخل المنزل .. طابقه الأرضي تشغله ثمانية حجرات منفصلة في كل منها تعيش عائلة يصل عدد أفراد بعضها إلى عشرة ويمرح بين جنباتها الفقر والمرض والجهل.
وكانت هناك دورة مياه وحيدة مشتركة لهذا العدد الهائل من الآدميين، وهي لم تستعملها قط.
ووصل إلى أذنيها أصوات سباب وعراك من إحدى الحجرات ..
وصياح وجلبة وصوت وقهقهات من حجرة ثانية.. وثالثة تعالى بها سباب إمرأة ورجل ضعيف يسترجيها.
كانت الأصوات لا تنقطع من جوف الحجرات ليلاً .. وتنفتح نهاراً لتصب ديدانها إلى الطرقات والحواري وأمام الأزقة بعمل في بعض الأحيان، وبلا عمل في أغلب الأحيان سوى السرقة أو التسكع والانحراف..
ما أشد ما عانت من مضايقات ساكني تلك الغرف، رجالها ونسائها على السواء.
فتحت باب الحجرة ودخلت ..
كانت أمها راقدة على فراشها مستيقظة، ما إن دخلت

حتى هتفت الأم المريضة بجزع : وفاء .. أعدت يا ابنتي .؟ أين كنت .؟ لقد قلقت عليك بشدة لتأخرك ولو كنت أستطيع السير لذهبت إليك في المشغل.

حنت على أمها وهي تجلس على طرف فراشها وقالت لها : أنا بخير يا أمي .. تعرضت لحادث عطلني.

وهنا فقط تذكرت ألم ساقها .. ولكنها تغلبت عليه ولم تشأ إخبار أمها به كي لا تزيد من أوجاعها .. وشرعت تقص على أمها الحادث الذي تعرض له الشاب داخل السيارة المحطمة:

غمغمت الأم براحة : حمداً لله أنك ذهبت به إلى المستشفى .. سيجازيك الله خيراً يا ابنتي على طيبة قلبك .. العمل الطيب لا يضيع أبداً.

تذكرت وفاء أنها لم تشتر طعاماً للعشاء .. أنساها الحادث ولهفتها على المصاب شراء العشاء لها ولأمها المريضة ..

اسرعت إلى حذائها فسألتها أمها: إلى أين يا وفاء ؟

ـــ نسيت شراء العشاء .. سأخرج لأشتريه و ..

قاطعتها الأم بوهن : أتخرجين ثانية في هذا الوقت

المتأخر والمطر .. ومن به حاجة الى العشاء.

عادت وفاء إلى مكانها بصمت .. ناولت أمها الدواء وكان به ما ينيم الأم في وقت قصير ويريحها من آلامها ..

وفي دقائق كانت وفاء غارقة في النوم أيضا وهي على جلستها أمام فراش أمها المريضة.

في الصباح كان ينتظرها الكثير من الأعمال ..

رتبت الحجرة القليلة الأثاث وغسلت ملابسها وملابس أمها القليلة، واشترت قليلاً من اللحم طهته لوالدتها المريضة ولم يكن بها رغبة لأي طعام..

كانت صورة الشاب المصاب ماثلة أمام عينيها بشدة تثير مخاوفها وقلقها كأنه إنسان عزيز عليها، وتمنت لو أنها استطاعت الاطمئنان عليه.. ولكنها لم تستطع ذلك قبل المساء ..

فبعد أن انتهت من أعمالها المنزلية صحبت أمها في تاكسي إلى عيادة طبيبها المعالج للاستشارة، ولم يزد الطبيب أن قال بأن حالة الأم مستقرة على ما هي عليه .. وأن الفرصة في شفاء عاجل ضئيلة .. وأمر باستمرارها في تناول العلاج السابق .. وعادت بأمها إلى الحجرة بعد أن

اشترت العلاج الذي أوشك على الانتهاء ودفعت إيجار الحجرة .. ولم يتبق لها من أجرها الاسبوعي غير خمس جنيهات وقروش قليلة، ولكن نفسها المطمئنة حدثتها قائلة، إن كان الله يطعم الطيور في أوكارها وأعشاشها، أفليس قادراً على إطعامها وأمها ولو لم تمتلك من المال شيئاً ؟ ولكن السماء على أي حال لا تمطر فضة ولا ذهبا !

هزت رأسها بحزن وقالت لنفسها : الأسبوع القادم لن أتأخر وسأضاعف إنتاجي حتى أستطيع تعويض ما نقص من أجري هذا الأسبوع.

وتذكرت أنها بحاجة إلى فستان جديد للخروج تشتريه بثمن قليل من محال بيع الملابس الجديدة التي بها قليل من العيوب بنصف أثمانها في « وكالة البلح » أو غيرها من الأماكن، بدلاً من فستانها الذي أوشك على البلى لكثرة ما استخدمته، ولكنه لم يكن مطلبا ملحا، ويمكنها تأجيله على أي حال ..

وفي التاسعة مساء كانت تخطو داخل المستشفى وفي وعيها ذعر شديد وخوف أشد على مصير الشاب المصاب الذي كانت تجهل اسمه حتى تلك اللحظة.

وطمأنها موظف الاستعلامات بأن الشاب لم تكن إصابته خطيرة، وأنه خرج من حجرة العمليات بعد خياطة جرح برأسه وأنه يرقد بحجرة رقم (٧٦) بالدرجة الأولى الممتازة.. وعرفت اسم الشاب.. « سامح عزمي رضوان »، وأحست براحة هائلة بعد أن اطمأنت عليه .. كأنها كانت تصارع أمواجاً عاتية توشك أن تغرقها، ولكنها أوصلتها إلى شاطئ الطمأنينة في نهاية الأمر.

خطت داخل الممر تقرأ أرقام الحجرات حتى توقفت أمام الباب الذي يحمل رقم (٧٦) ..

ترددت بغتة قبل أن تطرق الباب وهي تسأل نفسها .. ما الذي أتى بها إلى هنا.. إن كانت قد جاءت للاطمئنان على الشاب فقد علمت أن إصابته لم تكن كبيرة وأنه يرقد بصحة جيدة ..

لماذا تريد أن تراه .. أن تتطلع إلى عينيه .. إلى قسمات وجهه .. أن تتملى من ملامحه وهو يعيش وعيه ويحدق فيها ..

ما هذا الذي تفعله وتفكر فيه .. شيء لم يخطر ببالها من قبل.. وكادت تتراجع وتعدو في الطرق هاربة عائدة

من حيث أتت .. ولكن قدميها لم تطاوعها أبداً .. لقد جاءت لتطمئن عليه وتراه .. ولن تمضي قبل أن تراه.

وألقت نظرة إلى فستانها .. هو هو لم يتغير .. وكان ثمة تمزق صغير به مكان الكتف الأيسر، ولكن أحداً لا ينتبه إليه عادة، وهي لن تبقى بالحجرة إلا لحظة يسيرة ريثما تطمئن عليه.

طرقت الباب فدعاها صوت للدخول .. فتحت الباب ودخلت.

كان هو راقداً في فراشه وظهره إلى مسند كبير وقد ربطت رأسه وجبهته بشاش عريض وامتلأت الحجرة بباقات الزهور المعطرة، وكان بالحجرة رجل أشيب مهيب النظرات قوي القسمات نهض حالما رآها وفي عينيه تساؤل .. ولاحظت وفاء على الفور الشبه بين الرجل الأشيب والشاب الراقد في فراشه.

بالكاد استطاعت انتزاع عينيها من عيني الشاب الراقد في الفراش .. كان بوجهه جاذبية آسرة وبعينيه حياة نابضة وبريق طاغ : أحست بشعاعاتها تنفذان إلى مكنون قلبها وأسرارها.. حدقت بعينيها بصعوبة إلى وجه الرجل

الأشيب .. وارتبكت أمام نظراته النفاذة وأحست أنه يحاول قراءة ما يجول في أفكارها فقالت باضطراب : إنني .. لقد .. لقد جئت أطمئن على سامح و ..

قاطعها الرجل الأشيب ذو النظرات النفاذة بلهفة : هل أنت الفتاة التي أنقذت ابني وأخرجته من السيارة المحطمة قبل انفجارها ؟

هزت رأسها بنعم في ارتباك أشد ..

اندفع الرجل يحتضنها بغتة بوجه نابض بالفرحة فلم يُمكنها منعه، وأطلقها بعد لحظة وهو يتأمل ملامحها قائلا : إن ابني مدين لك بعمره.. إن ما قمتِ به كان شيئاً خارقاً.. الشرطة التي عاينت السيارة قالت إن الباب المحطم كان بحاجة إلى ثلاثة رجال أشداء لفتحه .. كيف فعلت ذلك وحدك ؟

لم تجد لديها رداً، إن ما يحدث لها منذ الأمس شيء أعجز من أن تفسره، وهل تستطيع أن تفسر سبب وجودها في ذلك المكان تلك اللحظة ؟

والتفتت بنظراتها إلى سامح.. كان يرمقها بعيون امتلأت بالشكر العميق وقال لها بصوت يحمل بعض الوهن : إنني

آسف لما سببته لك من اضطراب تلك الليلة .. أصابتني اغماءة مفاجئة نادرا ما تصيبني ففقدت سيطرتي على السيارة ووجدتها تندفع نحوك، وفي آخر لحظة أدرتها للناحية الأخرى ولم أحس بنفسي إلا عندما فتحت عيني في المستشفى بعد أن أفقت.

غمغمت بوجه مشرق متألق : حمداً لله على سلامتك.

هتف بها الأب وهو يهزها بسعادة : أطلبي يا ابنتي .. تمني ما تشاءين فأحققه لك في الحال .. إنني امتلك الملايين ومستعد أن أدفع لك ما تشاءين نظير إنقاذك ابني.

أحست بغصة في حلقها وشحب وجهها وغشاها غثيان كاد يفقدها وعيها .. وقالت وهي تتراجع للخلف خطوة كأنها تدافع عن نفسها : ما جئت لأطلب نقوداً .. أنا .. لقد جئت لأطمئن عليه فقط.

وأسرعت نحو باب الحجرة تلوذ به هرباً من الموقف .. ولكن وقبل أن تلمس قبضة الباب انفتح وظهرت داليا في مدخله وخلفها أمها !

جمدت وفاء ذاهلة .. وحدقت فيها داليا غير مصدقة وغمغمت بلهجة مستنكرة أشد الاستنكار : أنت ؟

هتف الأب : هذه هي الفتاة التي أخرجت سامح من السيارة المحطمة .. إنها الفتاة التي حدثتكما عنها.

حدجتها داليا بنظرة رهيبة مشتعلة كراهية، ورمقتها كريمة بصمت متجهم، وقال الأب بدون أن يلاحظ شيئاً : أخبرني الطبيب أن سامح يستطيع الخروج من المستشفى غداً، وعلى ذلك فلا أرى داعياً لتأجيل حفل خطوبته وداليا.

جمدت وفاء ذهولاً للمصادفة غير المتوقعة إطلاقاً.

ومال الأب نحو وفاء وقال باسماً : ستحضرين حفل خطبة ابني طبعاً .. أنت أول المدعوين.

لم تنطق وفاء .. شلتها نظرة داليا الواسعة العميقة الطافحة بالسواد، وبالكاد انتزعت وفاء أسرها من العينين الناريتين واندفعت جارية تغادر الحجرة .. وفي الطريق أطلقت لدموعها العنان.

« آلام مضاعفة »

وعادت إلى المشغل ..

أصوات الماكينات تصم الآذان .. وأصوات أحاديث الفتيات وضحكاتهن تتناثر في أرجاء الصالة الواسعة كل منهن تحكي عما فعلته يوم الأجازة السابق ..

أما هي فبقيت صامتة متوترة قلقة .. كمن ارتكب ذنباً ويعلم أن لا مفر من العقاب. ورجف قلبها مع انفتاحة باب الصالة وظهور داليا .. لم يكن من عادتها المجيء صباحاً أبداً، فهي لا تستيقظ مبكراً إلا للذهاب للجامعة .. ولم يكن من ضمن مشاغلها قط، أن تذهب للمشغل صباحاً ..

توقفت وفاء عن العمل وهي تحس أنها المقصودة، وتقدمت داليا تجاهها وفي عينيها بريق حاد مستفز، وانتزعت

بعنف من الماكينة قطعة النسيج التي شرعت وفاء في إتمامها، وألقتها فوق الأرض وداستها بقدميها في غل.

خفضت أصوات الماكينات وأصابها الخرس، وماتت حركات أيدي الفتيات فوق الماكينات، وتطلعن نحو وفاء وداليا بصمت وترقب وتوتر.

رفعت داليا أنفها شامخاً ورمت وفاء بنظرة احتقار وهي تقول : لا أريد أن أراك هناك مرة أخرى .. ليس هذا مكاناً للمتسولات أمثالك، هل كنت تنتظرين مكافأة على عملك البطولي .. من المؤسف أن أحداً لم يكن معه فكة وقتها ..

ارتعشت وفاء واحتقن وجهها وتصلبت ملامحها، وصرخت فيها داليا بغضب منفجر : هيا أغربي عن وجهي ولا تدعيني أراك مرة أخرى.

نطقت وفاء بصوت محتقن مرتعش برجاء وتوسل : إنني لم أفعل شيئا .. أرجوك .. وبتر رجاءها صوت الصفعة التي دوت في الصالة الواسعة .. وتركت أصابع داليا الممتلئة خطوطا حمراء فوق خدها الشاحب النحيل.

تحسست وفاء خدها بألم شديد .. ارتعشت شفتاها

بعنف .. لم تحس بنفسها إلا وهي تندفع باكية تجري لتغادر المكان ..

ظلت تجري وتجري غير دارية والمرئيات غائمة عن عينيها ..

ولم تشعر بنفسها إلا وهي تخطو داخل منزلها .. على الفور رصدتها النظرات الراقدة للجالسين على الأرض أمام الحجرات المفتوحة، نساء يجلسن يثرثرن ويتحدثن، ورجال بداخل الغرف لا عمل لهم سوى مراقبة الداخلات والخارجات ..

مسحت عينيها بسرعة واستقامت بظهرها، وفتحت باب حجرتها ودخلت.

التفتت الأم مندهشة لمجيئها المبكر، قالت وفاء تخفي دموعها عن أمها : ان صاحبة المشغل مريضة، ولهذا لم تأت وتفتحه فانصرفت الفتيات.

قالت الام وقد صدقت الكذبة : لا تضايقي نفسك يا ابنتي .. خذي هذا اليوم راحة فمنذ وقت طويل وأنت تعملين بلا كلل، وحتى يوم إجازتك تقضينه في أعمال أخرى. صمتت وفاء ولم ترد .. شغلتها أفكار عديدة

متناثرة .. لماذا فعلت معها داليا ذلك، أي خطأ ارتكبته في حقها .. أهذا هو جزاؤها على ما قدمته من خير ؟ تحملت الكثير من الأحزان والألام كي لا تفقد عملها .. وها هي في لحظة خاطفة صارت في مهب الريح وفي حضن الأوجاع.

ماذا ستفعل الآن .. أين ستعثر على عمل آخر للانفاق على الأم المريضة المسكينة، وماذا ستفعل لو طالت أيامها بلا عمل، وماذا ستقول لأمها. ؟

هل تذهب إلى ست كريمة لتشكو داليا لها .. وكيف تقبل كرامتها ذلك بعد أن صفعتها داليا أمام فتيات المشغل وأهانتها ..

وبكت وهي تقول لنفسها، وهل لمثلي كرامة، هل للفقراء المعوزين كرامة وحياتهم تهدر في سبيل الحصول على لقمة العيش المرة ..

وصممت على قرار لا رجعة فيه .. إنها لن تعود للمشغل أبداً .. ويكفيها ما نالته من عذاب وآلام وجرح مستمر لمشاعرها ..

ستبحث عن عمل آخر في أي مكان .. أي عمل مهما

لاقت به من مشاق ومتاعب وآلام .. ولكنها أبداً لن تفرط في كرامتها، فهي الشيء الوحيد الباقي لها.

في الصباح التالي غادرت مسكنها .. لم تخبر أمها بنيتها ولا اخبرتها بالحقيقة .. يكفيها ما هي به من آلام .. ودعت الله أن يوفقها إلى عمل لا يزيد من احتياجها وآلامها ..

وتلقفتها المحال وأصحابها واحداً بعد الآخر .. البعض كان يرد على سؤالها بأنهم لا يحتاجون لعاملات أو بائعات جدد .. البعض الآخر كان يسألها عن خبرتها في هذا العمل .. البعض الثالث لم يسأل عن شيء ما، ولكن نظراته الوقحة وأسئلته الثعبانية ومعاملته اللزجة دلت على مقصده.

قضت نهارها كله في تجوال .. وفي نهاية اليوم عادت مكدورة متعبة بدون أن تعثر على بغيتها .. كأنما سُدت كل الأبواب في وجهها .. أو كأن العالم كله قد خلا من الأعمال كي لا تعثر على عمل.

ولم يكن لديها من تلتجئ إليه الأقارب ينكرون أطراف العائلة من الفقراء ويغلقون دونهم أبوابهم .. ولم يكن لها من معارف أو صديقات ..

آخر صديقة لها كانت زميلتها بالمدرسة الثانوية،

والتحقت بكلية التجارة وقلت زياراتها لوفاء حتى انقطعت منذ عامين.

لم يكن لها من تلجأ لمعونته سوى الله .. وهي لم تفقد إيمانها به أبداً. وفي اليوم التالي طرقت منطقة جديدة تبحث عن عمل .. وتعرضت لمضايقات عديدة لا حصر لها .. الكل كان يرى فيها فتاة جميلة وحيدة فيطمعون في أشياء عديدة، وحتى السيدات من صاحبات الأعمال كن ينظرن إلى ملامحها الجذابة ويهززن رؤوسهن رفضاً.. ربما خوفاً على أزواجهن أو أبنائهن..

وتتابعت أيام الأسبوع .. كلت قدماها وتخدرت وأصابها وهن لا طاقة لها به .. تسربت الجنيهات الخمسة المتبقية من أجر الأسبوع الماضي .. لم تكن تستخدم أي وسيلة مواصلات في مشاويرها، ولا كانت تتناول سوى لقيمات صغيرة على الغذاء .. حرصت على جنيهاتها أشد الحرص مثل بخيل يمتلك كنزا لا يجرؤ على التفريط به.

ولكنها كانت بحاجة إلى طعام لوالدتها التي كانت تأكل أقل القليل.. وحرمت نفسها من كل شيء كيلا تشعر والدتها بما تعانيه..

وتبخرت الجنيهات الخمسة .. ومضى الأسبوع كله في تثاقل ومرارة لم تذقها في حياتها برغم كثرة ما عانت من قبل.

وخطت تجاه منزلها وهي بالكاد تمنع دموعها من الانهمار، لقد فعلت المستحيل بلا فائدة، ماذا يمكنها أن تفعل أكثر مما فعلت .. وهتفت بأعماق ملتاعة : يا رب .. لماذا تخليت عني ولم أفعل ما يغضبك ؟

ستجثو تحت قدمي أمها وتطلب منها سماحها وغفرانها .. ستشكو لها برغم كل شيء .. كانت بحاجة إلى قلب يشاركها أحزانها التي فاضت أنهاراً .. فتحت الباب بعقل مشتت ففوجئت به، جالساً فوق الكنبة الوحيدة بالحجرة وبصره معلق بالباب الذي دخلت منه كأنه ينتظرها منذ وقت.

لم تصدق عيناها أن تراه هو.. سامح. التفتت نحو أمها رغما عنها فطالعتها امها بنظرة إشفاق أفصحت عن أنها عرفت كل شيء.

نهض هو واقفاً حالما رآها .. فوق ملامحه الوسيمة شعور هائل بالذنب .. غمغمت ذاهلة : سامح ؟

تقدم خطوة نحوها فلمحت الدبلة الذهبية بيده اليمنى، قال بصوت يتعذب بالندم : أنا أسف يا وفاء لكل ما جرى لك .. لم أكن أدري أنني سأتسبب لك في كل هذه المعاناة والشقاء بدون قصد.

بقيت هي صامتة وعقلها لا يستطيع استيعاب ما يجري أمامها، تمنت لو أنه لم يرها بتلك الظروف .. لا يشاهد مظاهر فقرها وبؤسها .. لو أنها أخفت عنه حقيقة حياتها ورقة حالها .. لو ظل يظنها فتاة عادية كأي فتاة تعيش فوق وجه هذا العالم .. وليس بين أنقاضه ..

ما الذي جاء به في تلك اللحظة .. لحظة اكتمال يأسها وأحزانها، لماذا أتى في تلك اللحظة بذاتها وهي التي تمنت أن تراه في لحظات أخرى كثيرة .. إلا هذه اللحظة.

قال لها : ذهبت إليك بالأمس لأسأل عن سبب عدم حضورك حفل الخطبة فأخبرتني الفتيات هناك أن داليا طردتك .. بعد أن أهانتك أمامهن ..

وبصوت يقطر مرارة أكمل : وعندما سألت داليا قالت أنها ضبطتك تسرقين الخيوط من المشغل وأنها طردتك لذلك.

شحب وجهها بشدة كأنها تلقت ألف صفعة، انسالت الدموع في عيونها وقالت بصوت مرير : أنا أسرق الخيوط .. إنني لم أمد يدي إلى الحرام أبداً.

قال بصوت رجولي : لم أصدقها، أحياناً تكذب وأنا أعلم عنها ذلك، وربما لن يمكنني أن أعرف السبب الذي طردتك لأجله، ولكني جئت لإصلاح هذا الخطأ. ونظر نحو أمها بإشفاق كأنه يعتذر لها أيضا ثم عاد ينظر إليها وقال : لي صديق يمتلك شركة ناجحة للاستيراد والتصدير وهو يبحث عن سكرتيرة جيدة.

قالت وفاء بصوت مختنق يوشك على البكاء : أرجوك .. يكفي ما حدث ..

قال برجاء : لا تزيدي إحساسي بوطأة الذنب .. إنني لا أقدم لك إحسانا .. إن لك أما مريضة بحاجة إلى دواء ومصاريف علاج ولو كنت أعلم أنك تقبلين إحسانا ما ترددت في تقديمه لك، ولكني امنحك الشيء الذي تقبله كرامتك، والذي لا يعذبني ضميري لأجله.

كان كلامه ينساب بنعومة ورقة، وتطلعت نحوه لحظة فرأت في عينيه رجاء حاراً أن تقبل ما يعرضه عليها ..

التفتت الى أمها فشاهدت الدموع تتجمع في مآقيها.. من أين ستشتري لها الدواء الذي أوشك أن ينفذ؟

قالت بصوت مختنق وهي تبكي أمام إنسان لأول مرة في حياتها: إنني موافقة.

تسلمت عملها صباح اليوم التالي..

الشركة تقع في عمارة أنيقة بأطراف حي الزمالك.. حجرتها أنيقة متسعة.. تغاضى صاحب العمل عن جهلها الضرب على الآلة الكاتبة، ووعدته بأن تتعلمها في ظرف أيام قليلة.

واسعدها أن ترى الفرحة في عينيّ سامح.. كأنه أزاح عن صدره عبئاً كان يؤرقه ويعذبه، وارتاح فؤادها إلى خاطر أنها كانت تشغل حيزاً من اهتمامه ولو بقدر ضئيل.

لم تصدق أذنيها وصاحب المكتب يخبرها أن مرتبها سيقترب من المائتي جنيه شهريا.. مبلغ لم تكن تحلم به أبداً وسوف ييسر على حياتها الكثير فلا يرميها في عوز أو احتياج. وساعدتها إحدى موظفات المكتب في مهام وظيفتها وفي التمرين على الآلة الكاتبة حتى اتقنتها تماما.. وكانت مواعيد عملها تتيح لها وقتا أطول للاعتناء

بوالدتها المريضة التي تحسنت كثيراً عما سبق والحصول على قسط كبير من الراحة والنوم .. وبأول مرتب لها اشترت لنفسها فستانين جديدين كانت بحاجة إليهما في عملها الجديد أشد الاحتياج ..

وبدأت تعتني بزينتها وشعرها واشيائها الصغيرة، وأحست أن صاحب العمل يعاملها برقة زائدة إكراماً لصديقه سامح .. وتمنت لو أنها استطاعت يوماً أن ترد الجميل لذلك الإنسان ذو القلب الكبير الذي شملها برعايته.

ومضى شهران على عملها الجديد لم تر سامح خلالهما سوى مرتين، يوم أن ذهب معها لتقديمها لصديقه صاحب العمل، ومرة أخرى كان ماراً بسيارته أسفل المكتب فصعد ليسأل عن أحوالها .. وأحست أن الله يعوضها عن كل حرمانها السابق بعملها الجديد ..

وعادت ذات يوم إلى حجرتها حاملة الدواء والعشاء والفاكهة لأمها ..

ولكن الأم كانت راقدة بلا حراك وقد ارتسم فوق وجهها تعبير من الراحة والاطمئنان كأنها لم تشأ أن تغادر الدنيا إلا بعد أن اطمأنت على ابنتها.

ماتت أمها ..

بكت وصرخت وانهمرت دموعها انهاراً، فما اقصر لحظات سعادتها والحزن يصر على ان يقبض بأصابعه فوق قلبها ويعتصره بمخالبه الدامية.

تجمع الجيران وساكنو الغرف .. شاركتها النواح سيدات يقطن الحجرات المجاورة لم تكن تعرف اسماءَهن.. أما الرجال فأتوا بالحانوتي وطبيب ليوقع شهادة الوفاة، وحملوا الجثة فوق أكتافهم في صندوق كالح المعالم .. وذهبت إلى المقابر منهارة لتودع أمها للمرة الأخيرة.

السرداق الذي أقيم على عجل ضم أشتاتا من السكان والجيران ممن لم تقع عيناها عليهم أبداً.. جاءوا ليعزوا في امرأة لم يروها قط ..

ضمتها أحزانها ومرارتها .. أغلقت بابها على نفسها.. ارتدت السواد وبكت آخر من تبقى لها في حياتها.

لماذا لا تدوم السعادة، لماذا ماتت أمها يوم ان تنسمت أولى نسماتها، وهي التي تجلدت معها وكافحت وعانت أيام الحرمان، ولحظة أحست أنها ستعوض أمها أيام آلامها وحرمانها كانت هي لحظة الفراق الأبدي.

غابت عن عملها أسبوعاً كاملاً، كثير من الجيران كانوا يقرعون بابها بلا سابق معرفة ليواسونها ويشاركونها آلامها .. وقد يأتي البعض الآخر بطعام لها لا تمسه .. وكانت تتمنى شيئاً وحيداً، تتمنى شيئاً كانت موقنة أنه سيخفف آلامها ويرطب هجير قلبها.. أن تراه.. أن تحادثه .. سامح.

كان هو الوحيد الذي يمكن أن تتقبل منه كلمة عزاء .. الوحيد الذي يخفف وجوده بجوارها من قسوة أحزانها .. الوحيد الذي يعوضها عن أي غالٍ تفقده .. وزاد حزنها وبكاؤها على أمها الراحلة وهو بعيد عنها لا تراه ولا يواسيها ولا يحس بقسوة أحزانها.

وخبط الباب في مساء .. تجلدت حتى تفتحه فوجدته أمامها.. ارتسمت على وجهه نظرة حزينة متألمة.. مد يده مصافحاً وقال معزياً: البقية في حياتك.

شلتها المفاجأة لحظة فلم تقدر على النطق .. خيل إليها أنها تحلم .. تتخيل .. هل يمكن أن يكون وجوده أمامها واقعاً ملموساً، تماماً كما تمنت أن يكون ؟.

هل يمكن أن يكون قد قرأ أفكارها وأحس بمشاعرها

فجاء ليمنحها شيئاً من السلوى والصبر.. لكم هي مدينة لهذا الإنسان، من قبل حتى أن ينطق بكلمة مؤاساة واحدة. دعته للدخول .. جلس فوق الكنبة الوحيدة وقال : لا أحد في مكان عملك يعلم بما حدث .. ذهبت للسؤال عنك مصادفة فأخبروني بغيابك وعندما أتيت هنا أخبرني الجيران بما حدث.

وبعيون ملأها اللوم قال لها: لماذا لم تخبريني لأقف بجوارك في هذه المحنة ؟

قالت من وسط دموعها : أولاد الحلال كثيرون وقاموا بواجب المساعدة.

قال لها : وإلى متى سيدوم حزنك وانصرافك عن الدنيا .. الحزن والبكاء لن يعيدا والدتك المتوفاة، وهي لن ترضى أن تفقدي عملك وتعتزلي الدنيا حزنا عليها .. الحزن الحقيقي يكمن في القلوب وكل إنسان يعيش أحزانه داخل نفسه. لا يمكنني أن أقول لك لا تحزني ولا تبكي على أمك.. من منا لم يَبْكِ على أمه.. أنا بكيت أمي أياماً طويلة ولكني عرفت أن البكاء لن يرجعها فكتمت دموعي في صدري وخرجت إلى الناس والدنيا فهذا هو

قدرنا، ان نودع أعزاءنا وأحباءنا ونعيش بدونهم فالحياة لا تتوقف ابدا.

ودنا منها وقال برفق كوالد يخاطب ابنته : اخرجي إلى العالم ثانية .. عيشي حياتك واتركي حزنك في قلبك فهذا شأنك وحدك.

أحست وفاء في كلماته العزاء الذي كانت تنتظره، وبرغم أن كلماته كانت تبدو كما لو أنها مجاملة، فقد أحست أنه يعني كل كلمة قالها .. وأن أمرها يشغله، وأن مجيئه ليس مجرد أداء واجب في مناسبة حزينة .. وقال لها بإشفاق : ما رأيك في أن نخرج ونسير قليلاً ؟

همت بالاعتراض وقلبها يخفق بالموافقة فأسرع يقول بحنان : يجب أن تغادري هذه الحجرة فإنها توشك أن تقتلك لو مكثت بها أكثر من ذلك.

وطاوعته .. أقلها بسيارته .. وسار بها بمحاذاة النيل العريض المتسع، وهبت نسمات ندية رطبت روحها .. وقررت أن تمضي في حياتها، وأن تغلق باب أحزانها في قلبها فتعيش به وحدها كما فعلت عمرها كله، كما عاشت حياتها كلها .. على الأقل من أجل هذا الانسان الذي سعى

إليها وطلب منها ذلك، وما كان يمكنها أن ترفض له طلب أو تثني له رغبة ..

فإن كان يريدها أن تعيش وتخرج للناس فستعيش لأجله هو لا لأجل نفسها .. ستعيش فقط لتحس أنه راض عنها وأنها لن تكدر صفوه وهناءه .. حتى لو كان هذا الصفو والهناء بعيدين عنها أشد البعد.

وعادت إلى عملها ثانية لتتقبل عزاء الجميع وإشفاقهم ..

وأحست أنها تدين بالكثير لذلك الإنسان الذي أعادها للحياة مرتين .. أحست أنها تدين بحياتها ذاتها .. ومن أجله .. من أجله فقط، من أجل أن يشعر أنها ترد له الجميل وتحس به قررت أن تكمل دراستها .. أن تنتسب للجامعة .. أن تقول له أن الفضل لك في كل خطوة أخطوها في حياتي ..

وقدمت أوراقها بكلية التجارة .. ولظروفها الإستثنائية وافقت الكلية على قبولها. وأحست بالحياة تتسلل إلى ضفاف قلبها .. لأول مرة منذ عاشت.

« اعتراف بالحب »

شيء ما يتسلل إلى شغاف قلبها ..

شيء ما يخيفها .. يخيفها كأشد ما يكون الخوف.

تحس أن قلبها ينبض بشيء ما تخشاه .. قلبها الذي اغلقته عن السعادة والهناء والذي ظنت انه ما خفق إلا ليذكرها بأحزانها.

لماذا بدأت تتأنق .. لماذا بدأت تتجمل .. لماذا صارت تقضي وقتاً أمام المرآة قبل أن تذهب لعملها ..

لماذا كان قلبها يرتجف عندما ينفرج باب مكتبها أو عندما يدق جرس تليفونها ؟

هل كان ذلك لأنها كانت تتوقع أن تجده يدخل من باب المكتب أو يسري صوته عبر أسلاك التليفون ؟

كانت تتمنى لو تجرؤ وترفع السماعة وتتصل به على

رقم عمله بشركة والده حيث ترك الرقم لها بكارت يخصه لتتصل به إذا احتاجت شيئاً ما.. ولكنها خشيت أن يظن بها الظنون، فمات الخاطر في نفسها قبل أن يولد .. وراحت تؤجل اللحظة .. تؤجل مواجهتها لنفسها .. تخشى على نفسها من إعلان الحقيقة .. كانت تراوغ نفسها .. تهرب من مشاعرها ..

تخشى أن تكون قد أحبته .. أحبت الإنسان الذي وهبها للحياة مرتين .. كانت تخشى على قلبها من مزيد من الأحزان بحب يائس لا أمل به.

آلمها إحساسها بحبه .. أو خوفها من حبه .. عذبتها تلك المشاعر اليائسة التي تنطلق من قلبها صوبه دون إرادة منها أو وعي ..

تحاول أن تضبط إرادتها .. تتحكم في مشاعرها .. تسيطر على خلجاتها ..

ولكن هيهات .. فمن قبلها استطاع إيقاف نبضه أو شل تدفق الدماء في عروقه ؟ وهي تحس أنه نبضها الذي تمضي به حياتها، ودماءها التي تسري في عروقها. تأكدت من الحقيقة التي زلزلتها .. انها تحبه.. تحبه بتأكيد ويقين

مهما غافلت نفسها وكذبت ظنونها .. تحب إنساناً لا يحس تجاهها إلا بمشاعر الشفقة، أو ربما بنوع من رد الجميل لأنها أنقذت حياته يوماً ما .. وكل ما تراه من مظاهر عطفه وحنوه ليس إلا هذه الشفقة .. ورد الجميل.

وتعذبت ..

تعذبت وكان ليل عذابها طويلاً .. وتقلبت فوق جمر النار يكويها ويؤجج أحزانها. كيف أحبته .. كيف سمحت لنفسها .. كيف جرؤت ؟

كيف تحب إنساناً قد ارتبط بغيرها .. تدور مشاعره في فلك مشاعر أخرى .. يتمناها ويترجاها ويسعد معها .. يقضيان الساعات والأيام في مناجاة وسرور.

كيف تحب إنساناً ربط نفسه بقيد في إصبعه، يمتد طرفه الآخر إلى إصبع إنسانة أخرى ليعلنا الى العالم كله شريعة ارتباطهما وناموس حبهما.

كيف ارتضت لنفسها هذا الهوان .. أن تحب ما لا حل لها به، ولا أمل فيه. كيف تحب إنساناً سائراً إلى غيرها في النهاية ..

لماذا تتشبث بخيوط اليأس وتعلق حياتها بها، فما تدري

إلا وقد لُفت تلك الخيوط حول عنقها ومنبت حياتها ..
كأنها تخطو للموت بإرادتها.

وهل تتحمل صدمة جديدة ؟

هل ستترك الأيام تحملها بأمواج يأسها لتراه يوماً ليلة عرسه مع الأخرى .. تلك التي أهانتها وصفعتها وطردتها شر طردة واتهمتها بالسرقة والتسول ؟

بكت كثيراً وهي تترجى قلبها أن يكف عن حبه ..
أن يكف عن تمنيه .. أن يكف عن تعذيبها.

كان بحياتها وماضيها ما يملأ بحور مستقبلها أحزاناً مترعة.

ولكن قلبها لم يطاوعها .. وأحست أنه محق في ذلك ..
ربما لأنها لو كفت عن حب ذلك الإنسان لماتت في نفس اللحظة ..

لعله سبب بقائها في الحياة .. تتشبث بحبه وتستمد منه قوتها وأملها، حتى لو كان أملاً يائساً .. ولكنها أبداً لا تستطيع أن تخنق أول مشاعر أحست بها في حياتها.

* * *

فوجئت به أمامها فجأة في المكتب ..

كانت منشغلة بشيء ما بعد أن انصرف الجميع من

العمل وتأهبت هي للانصراف ايضا واغلاق المكتب، وعندما رفعت عينيها شاهدته امامها منتصبا يرنو إليها بابتسامة هادئة ..

كادت تهتف من الفرحة .. تقفز .. تصرخ .. تندفع إلى ذراعيه.

ولكنها تماسكت إلى أقصى ما تستطيع .. بالكاد تحكمت في أصابعها لتمدها له مسلمة وهي تخفي ارتعاشها واضطرابها ..

هتف بها وهو يستبقي أصابعها الرقيقة في كفه القوية : كيف حالك ؟

غمغمت بصوت مسحور : بخير.

قال باسماً : كنت ماراً أسفل العمارة فخطر لي أن أطمئن عليك.

آلمتها عبارته .. ما جاء إلا ليسألها إن كانت تريد شيئا .. ليست في نظره إلا فتاة مسكينة لا تستحق من أركان مشاعره إلا الشفقة والعطف.

حاولت أن تنطق فخانتها كلماتها، وقال بابتسامة أوسع : توقعت أن أسمع صوتك في التليفون ولكن يبدو أنهم

يحصون عليك المكالمات هنا.

قالت وعيناها تفضحان كذبها : وضعت الكارت في مكان ما ونسيت المكان.

ظهر تعبير من الإستياء القليل على وجهه وقال : ليس هذا من صفات السكرتيرات الناجحات .. وأعلم أنك سكرتيرة ممتازة.

قالت له بلوم لا يخفى : أنت أيضاً لم تفكر في الإتصال بي.

لم يجبها على الفور .. أحست أن هناك كلمات كادت تندفع رغماً عن إرادته لولا أن تَحَكَّم بها في آخر لحظة.. وعندما همَّ بالحديث انفتح الباب بغتة بعنف وظهرت بمدخله داليا.

كان بوجهها ابتسامة ساخرة أشد السخرية، وتقدمت نحوهما كأنها ضبطت عاشقين غارقين في الغرام وقالت : هذا ما ظننته .. لمحت سيارتك أسفل العمارة مصادفة فرأيت أن أصعد لأرى ما يجري هنا .. لم تكتف بأن تعثر لها على عمل، بل جئت لترعى شؤونها وأحوالها أيضاً.

شحب وجه وفاء وارتعد بدنها، وهتف سامح بغضب

رأته لأول مرة في عينيه : داليا .. ماذا تقولين، وكيف تدخلين بمثل هذه الطريقة غير المهذبة ؟

قالت بإشمئزاز وهي تشير نحو وفاء : وهل ما يدور هنا هو الشيء المهذب.. ؟ ألا تخجل وأنت تحادث فتاة تعيش كالفئران في الجحور، فتاة لم تزد عن أن تكون خادمة ولصة سبق وطردتها.. لم أكن أعرف أن لك ذوقاً هابطاً بمثل هذه الصورة.

امتدت يد سامح في صفعة داوية فوق وجهها..

فوجئت داليا بالصفعة .. ذهلت .. عربد الجنون في أوصالها .. هتفت بصوت كالفحيح : أتصفعنى .. لأجلها ؟

قال بقسوة : أصفعك لأنك غير مهذبة .. تحملت الكثير من نزقك وطيشك وغرورك وكذبك .. ولا يمكنني أن أتحمل إهاناتك في النهاية .. ولا أن أدع الآخرين يصيبهم الجراح بسببك.

اندفعت داليا كالمجنونة نحو وفاء وصرخت بها : أنت سافلة .. حقيرة ..

وصفعتها مرة .. مرتين .. واستسلمت لها وفاء ذاهلة ..

كأنما أصابها شلل .. لا تستطيع حتى أن ترفع يدها فتحمي نفسها من صفعات داليا.

انقض سامح على داليا .. أمسك يدها التي همت بصفع وفاء للمرة الثالثة .. بيده الأخرى صفعها صفعة شهقت لها وارتمت فوق المكتب. هتف بها بصوت يقطر غضباً : أنت بحاجة إلى من يعيد تهذيبك .. لا أدري كيف تحملتك كل هذا الوقت. وخلع الدبلة الذهبية من يده اليمنى وألقاها في وجهها وهتف بها : ابتعدي عني .. لا شيء يربطني بك بعد الآن.

اختطفت وفاء حقيبتها .. اندفعت كالمجنونة تغادر المكان.

جاء صوت سامح من خلفها يناديها .. لم تلتفت له .. قفزت السلالم في سرعة محمومة .. تلقفها الطريق وحملها اول تاكسي إلى حجرتها ..

أغلقت بابها وارتمت فوق فراشها تبكي وتبكي ..

كادت أن تمزق فراشها بيدها قهراً وألماً ..

انها ليست أكثر من خادمة .. مهما علا شأنها فهي خادمة .. خادمة سبق وداستها داليا بقدميها وأهالت التراب

فوق كرامتها ومشاعرها ..

لماذا يا داليا تعذبيني عمري كله .. لماذا تصرين على إيلامي وتحطيمي وإزلالي أينما تكونين .. حتى أمامه هو ..

لم يكن حزنها على نفسها قدر حزنها عليه هو ..

هو، الذي تسببت له فيما حدث بينه وبين خطيبته.. ترى ماذا سيقولون عنها وأي الصفات الظالمة سيلصقونها بها ؟

هل سيقولون أنها على علاقة به، وأنه ذهب ليختلي بها وهو يعلم أن المكتب خال إلا منها ؟

حتى لو قالوا لا يهمها ما سيلوكون سمعتها به .. ولكنها تحس بذنب هائل تجاه ما سيقولون عنه.. هو الإنسان الطاهر النقي الشريف ..

ما بالها تلصق الأوحال والأحزان بكل من تقترب منهم .. حتى منه هو .. هو الذي منحها الأمان لأول مرة في حياتها بعد وفاة والدها ووالدتها.

تمنت لو تموت .. لو تذوب في دموعها خيوط حياتها فتغادر تلك الدنيا للأبد .. فما بال الموت لا يجيء لمن يتمناه. ؟

دق الباب بقوة.. خشيت أن تفتحه فتجده هو..

عاود الدق .. فتحت الباب رغما عنها وعيونها غائمة بالدموع .. كان هو واقفاً بالباب وصدره يعلو ويهبط باللهاث. قال متألماً : وفاء أنا ..

قاطعته ودموعها تسبح فوق وجنتيها : سامح .. يكفي ما نالك بسببي من أذى ومشاكل .. أرجوك .. إنني الملامة.. هذا هو حظي في الحياة.. الشقاء والعذاب. ولن يمكنك أن تصلح من حالي أو مسيرة حياتي. هناك أناس اختارهم القدر، أنه أقوى مني ومنك، سأعتزل الحياة، سأدفن نفسي حية حتى يجيئني الموت فإنه خلاصي الوحيد.

ارتسم ألم عميق فوق وجهه وقال : وفاء .. كيف لا تفهمين ؟

قال بصوت مجروح : أنا أحبك يا وفاء .. لماذا لا تدركين ؟

« وعد بالزواج »

لم تصدق.. خشيت أن يكون ما سمعته وهما.. ما أكثر الأوهام التي دارت بعقلها .. لم تستوعب ما قاله أول مرة .. وأكمل هو قبل أن تتيح لنفسها زمنا للتيقن : وفاء .. صدقيني .. إنني أحبك .. أحبك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها .. أحببتك منذ رأيتك تدخلين حجرتي بالمستشفى لتطمئني علي .. أحببتك لأني وقتها رأيت في عينيك البراءة والطهارة اللذين لم يعد لهما وجود بهذا العالم.

تراجعت للخلف ذاهلة .. هزت برأسها غير مصدقة .. زاد من ألمها مذاق دموعها فوق شفتيها، قالت له باكية مبتئسة : أرجوك.. يكفي كل ما قدمته لي للآن .. إن الشفقة لن تكون باعترافك بحب وهمي لن يكون أبداً .. لا يمكن أن توصلك طيبة قلبك وكمالك إلى ان تدفع ثمن أحزاني من سعادتك.

قال متألما : لماذا تصرين على أن مشاعري نحوك هي الإشفاق فقط.. لو كان ذلك صحيحاً ما كانت بي حاجة لأن أعترف لك بحبي .. قد أكون أشفقت عليك يوم أهانتك داليا وطردتك من المشغل، وأشفقت عليك عندما علمت بوفاة أمك.. ولكني الآن لست في موقف الشفقة.. أنا أحبك يا وفاء.. أحبك وأتمناك كما لم أحب وأتمنى مخلوقة من قبل.

همست ذاهلة : لست افهم .. أحقيقة انك .. ولكن هذا مستحيل .. مستحيل .. إننا مختلفان تماماً .. مختلفان وبعيدان بُعد السماء عن الأرض ..

قال برجاء : الحب لا يعترف بالاختلافات ويدوس فوق الاعتراضات .. عندما أحببتك لم أسأل نفسي كيف ولماذا .. ولكني أحسست بروحك تتسلل إلى حنايا صدري وتستقر به هادئة مستكينة .. لم أفكر وقتها أنك فقيرة أو يتيمة أو أن القدر حرمك من إكمال تعليمك .. ولكني فكرت بأنك إنسانة عظيمة .. أعظم إنسانة قابلتها في حياتي .. إنسانة رفضت إكمال تعليمها لتنفق على أمها المريضة .. تحملت الشقاء والذل في المشغل وكان

بامكانك أن تربحي ما يريحك في عمل آخر. ولكن ضميرك وأخلاقك لم يسمحا لك بهذا! العمل الآخر .. أحببتك ليلة أن عرض عليك والدي كل ما تتمنين من مال لقاء إنقاذك لي فرفضت .. رفضت وأنت لا تملكين من حطام الدنيا سوى البؤس والشقاء ..

وقفت تستمع له ذاهلة .. تخشى أن تصدقه .. أكمل بعد لحظة ألم : كتمت حبك في صدري وارتبطت بداليا .. كنت أعرفها من قبل وإن لم أحبها .. قال لي والدي أن الزواج هو ارتباط العقل .. وكان له مع والدتها عدة مشاريع فلم أعترض .. وعانيت الكثير من تسلطها وغرورها .. إنها فتاة تافهة لا يهمها أكثر من زينتها وحليها وصلفها الكاذب .. وكان لا بد أن ننفصل .. عقلي لا يقبل هذه الأشياء أبدا .. عشت عمري كله أبحث عن الإنسانة المثالية الرقيقة الحنون .. وبعد أن وجدتها لن أتخلى عنها أبداً ولو مقابل كنوز العالم.

أصابها دوار.. كأنها تقاوم موجاً يأخذها إلى قرار بعيد .. تخشى من فرط فرحتها على نفسها منه .. ترنحت

فاندفع نحوها ملهوفاً، همست له بضعف : أرجوك دعني .. دعني وحدي.

تجلى الألم في وجهه قاسيا، وتساندت على الحائط وتراجع هو مهزوما إلى الباب وقال بصوت مشروخ : إنني أعتذر لما قلته .. لم أكن أعلم إنني سأجرحك بهذا الشكل .. لا يمكنني أن أفرض عليك مشاعر لا وجود لها في قلبك.

كاد يخرج فهتفت به أن ينتظر .. توقف وعيناه تشعان بالألم، تندت عيناها بالدموع وهي تقول له : أنا أيضاً أحبك يا سامح.

أشرق وجهه بسعادة طاغية .. أحس كأنه يسبح في عوالم أخرى سعيدة مبهجة، أكملت بوهن : أحببتك يوم أن أخرجتك من سيارتك المحطمة .. عذبني مشهد الدماء المنسالة فوق جبهتك وجراحك وأناتك المتألمة وأحسست كأن جراحك هي جراحي .. أحببتك حبا يائساً وأنا أعلم علم اليقين إنك لن تكون لي أبداً .. ولكني أردت إرضاءك ولو لم تحس بمشاعري. ومن أجلك التحقت بكلية التجارة .. من أجلك امتنعت عن أن أرد لداليا صفعاتها ..

من أجلك استعذبت آلامي وجراحي. إن رقم تليفونك لم يضع مني .. وكيف أضيع أجمل ما في حياتي .. إنني احتفظ به قريبا من قلبي، وإن كانت أصابعي لم تطاوعني أن أدير رقمك لأسمع صوتك حتى لا تأخذك الظنون بي .. كم اشتقت لهذا الصوت. من أجلك كنت مستعدة أن أعيش راهبة في محراب حبك عمري كله، فلا يكون بقلبى سواك إلى لحظة وفاتي، حتى إن صرت إلى غيري.

تهدج صوته وهو يقول : وفاء .. مستحيل .. لا أكاد أصدق أذني .. أنا .. أنا أيضا تمنيت لو أستطيع أن أتصل بك .. أسمع صوتك ولو عن بعد .. وخشيت أن تسيئي تفسير موقفي .. وعندما ذهبت لزيارتك من قبل في المكتب، واليوم ايضاً، لم يكن ذلك لأنني مررت مصادفة أسفل العمارة، بل ذهبت متعمداً بعد أن طال بي الشوق لرؤيتك .. ولو كان باستطاعتي لذهبت كل يوم، ولكني خشيت من سوء ظنونك بي.

مرت لحظة صمت هانئة، وأحياناً يكون التعبير بالصمت هو أبلغ تعبير، وتكون المشاعر الفياضة والنظرات الحنون وبسمة الود والصفاء أكثر تعبيراً من ملايين الكلمات.

امتدت أصابعه فتشابكت بأصابعها في قوة، ترقرقت الدموع في عينيها فهمس لها بشجن : أتبكين ؟

قالت بصوت متهدج : هذه سعادة لم أحسها من قبل في عمري كله .. سعادة لم أكن أدري أن لها وجوداً في هذا العالم .. حسبت أن سعادتي ولت يوم مات أبي .. وأنت الآن تشملني بسعادة أوسع وأكبر وأعمق لا حدود لهنائها. همس لها : وفاء .. أتقبليني زوجا لك ؟

تراجعت بذعر كأنها تلقت لطمة .. أفاقت سريعا .. حدقت به بعيون واسعة مبهورة، وهتف سامح بدهشة : وفاء .. ماذا حدث ؟

قالت بصوت ذاهل : سامح .. هل أنت في وعيك ؟

بدهشة تساءل : ولماذا لا تظنيني بوعيي ؟

بذهول أشد قالت : أتدري معنى ما طلبته مني ؟

بإصرار قال : سألتك إن كنت تقبليني زوجاً .. ولا زلت مصراً على السؤال.

هتفت به برجاء : لا .. لا يا سامح .. أرجوك .. إننا لن نكون لبعضنا أبداً .. لن تكون لي ولن أكون لك أبداً ..

هتف بدهشة عظيمة : أنت تحبينني وأنا أحبك فما الذي يمنع ارتباطنا ؟

ــ الموانع كثيرة جداً يا سامح، أكبر مني ومنك ومن حبنا.

قال بيقين وإصرار : لا شيء أقوى من حبنا أبداً .. حبي لك أقوى ما في هذا العالم.

قالت بألم : والناس .. ماذا سيقولون عني وعنك ؟

ــ لا يهمني ما يقوله الناس ما دمنا لن نفعل شيئا خاطئا .. الناس لن يعيشوا لنا حياتنا.

ــ وداليا ؟

ــ كانت في هامش مشاعري، والآن أنت تمتلكينها كلها.

ــ والفارق بيني وبينك ؟

ــ المال لم يكن فارقاً أبداً .. وحبنا هو كنزنا الذي سننفق منه فيغنينا عن مال العالم كله.

ــ ووالدك ؟

تباطأ قليلاً قبل أن يجيب .. كان هذا هو السؤال الوحيد الذي لم يسأله لنفسه قبلا، ترى أيوافق والده على زواجه

من وفاء، هل سيحس بمشاعره ويقدر أحاسيسه .. إن والده يحسب كل شيء بحساب المال فهل يغير حساباته هذه المدة ؟

التفت لها وقال بهدوء : والدي لن يمانع .. سيوافق .. ما دمت أنا سعيداً فسيكون هو راضيا.

قالت برجاء : أرجوك فكر جيداً يا سامح .. لا تندفع وتجعل حبك يعمي عينيك.

قال بثقة : إن حبي لك هو الذي فتح عيني على أجمل شيء بهذا العالم .. أنت يا وفاء.

« رفض ومصاعب »

التمعت عينا الأب ببريق مستنكراً غاضباً وهتف في سامح : ماذا تقول .. أجننت ؟

قال سامح بهدوء : أرجوك يا والدي .. إنني أحبها ولا يمكنني التخلي عنها.

بعيون ضيقة قال الأب: إذن فما قالته داليا صحيح.. إن هذه الفتاة استطاعت التغرير بك وخداع مشاعرك وإنك كنت تذهب إليها وحدها في مكان عملها.

بعنف قال سامح: لا أسمح لأي إنسان أن يشوه صورة وفاء.. إنها أطهر إنسانة على هذه الأرض.

ـــ هل هو إحساسك بأنك تريد أن ترد لها صنيعها بإنقاذها حياتك لأنها إنسانة فقيرة يتيمة.. يمكنك أن تدفع لها من المال ما تشاء ولكن ليس أن تتزوجها.

ـ لماذا لا تفهمني يا والدي ؟ ما أحسه نحو وفاء ليس شفقة أو إحساس برد الجميل .. إن مشاعري نحو وفاء أسمى وأعلى من ذلك.. إنني أحبها.. أحبها.. لماذا لا تفهم ذلك يا والدي. ؟

قال الأب بعيون متسلطة : الذي أفهمه أنه يستحيل عليك أن تتزوجها .. مهما كانت الأسباب.

بهدوء قال سامح : هذه حياتي يا أبي وقد اخترتها بنفسي.

ـ أتعصاني يا سامح ؟

ـ للطاعة حدود يا والدي .. لم أرفض لك طلباً من قبل ولكن هذه مسألة تخصني وحدي وكنت أتمنى ارضاءَك.

هتف الأب بغضب هادر : وأنا .. ألست والدك .. ألست من رباك وعلمك وأنفق عليك .. أليس لي إرادة من زواجك ؟

ـ لا أنكر فضلك يا أبي .. ولكن ليس معنى ذلك أن تكون حياتي كلها في قبضتك فتحكم بها كيفما تشاء.

بتوسل قال الأب : أنا أحبك يا سامح .. أحبك أكثر من نفسي .. أنت الباقي لي في هذه الدنيا .. ليس لي

أحد سواك بعد وفاة أمك .. لماذا لا تفهمني يا ولدي، إنني أبغي مصلحتك.

ــ لا يمكن لأحد أن يقدر مصلحتي أكثر مني.

استعاد الأب عنفه هاتفاً : أنت لا زلت غراً ساذجاً برغم سنواتك الثمانية والعشرين.

ــ أنا ناضج بما فيه الكفاية يا أبي لأختار طريقي بنفسي.

ضاقت عينا الأب بالتهديد وقال : سيستحيل عليك أن تشق طريقك وحدك بدوني.

رد سامح بثقة : سأعتمد على ساعدي وعقلي.

هتف الأب هادراً : لن تأخذ مني مليماً واحداً وأنا حي ما دمت ستخرج عن طوعي وإرادتي.

ــ لا أريد أكثر من رضاك.

صرخ الأب : أيها المجنون .. كيف تلقي بنفسك إلى الهلاك بيديك.. كيف تربط قدرك بانسانة فاشلة كانت عاملة وخادمة، ماذا ستقول للناس عنها .. أي أسرة لها ستقدمها لهم .. أي مزايا لها ستعددها لهم .. لماذا تقبر نفسك بيديك .. أنت أمامك المستقبل العريض والملايين .. لماذا لا تختار من تناسبك.

بهدوء قال سامح: سأذهب لآتي بملابسي من حجرتي.

صاح فيه الأب بغضب هادر : حتى هذه لن تأخذها .. لن تأخذ شيئا من هنا أبداً .. لا نقودك ولا ملابسك أو سيارتك ولا أي شيء آخر .. اذهب .. اذهب إليها .. فان ارتبطت بها فلا تدعني أراك أبداً .. لا تدعني أراك او أسمع أنباءك .. فلتذق طعم الشقاء والذل لتعرف أي مصير أسود ربطت مستقبلك به .. فلتعاني من شظف الحياة والشقاء والتعب لتعرف أي نعمة قد رفستها بقدمك، ولكني برغم ذلك سأترك بابي لك مفتوحاً لتعود في أي وقت، بشرط أن تعود وحدك عندما تفيق من هذا الوهم الذي تعيش به وتترك هذه الفتاة.

* * *

ارتمت وفاء فوق كتف سامح باكية .. ارتج جسدها بالنشيج المكتوم وقالت له : أرجوك يا سامح عد إلى أبيك .. لا أريد أن أكون السبب في إنفصالك عنه وغضبه عليك .. لا أريد أن يكون ارتباطنا على انقاض حب أبيك لك.

قال لها بحزن : إن والدي يرفض أن يمنحني حقي

في أن أعيش حياتي .. أنا لست طفلاً يا وفاء ومن حقي أن أختار حياتي، وإن كان والدي يظن إنه بحرماني من المال سوف يخضعني له فسوف أثبت له أنه مخطئ في ظنه وأن ما كان يربطني به ليس المال .. صدقيني يا وفاء إن ارتباطنا وتتويج حبنا بالزواج واستقراره هو الشيء الوحيد الذي سيقنع أبي أنني لم أكن مخطئاً في اختياري لك.

ونظر إليها برجاء وقال : وفاء .. أريد منك وعداً قاطعاً لا تحنثي به أبداً.

هتفت بصدق: سأصدق في وعدي مهما كان.

قال لها : عديني ألا تلجأي إلى أبي أبدا لطلب المال أو المساعدة .. مهما كان عوزنا واحتياجنا .. وحتى لو توقفت حياتنا على هذه المساعدة التي سيقدمها أبي لنا.

هتفت بحرارة وبلا تفكير : أعدك يا سامح ..

أمسك بأصابعها بحب بالغ وقال لها بسعادة طاغية : هل أنت مستعدة للذهاب إلى المأذون ؟

هزت رأسها بفرحة طفولية وعيناها تلمعان بالدموع .. فما أحلى أغلى الأمنيات وهي تتحقق، بعد أن كانت من ضروب المستحيل.

« طفل في الطريق »

السعادة إذا ما ألقت بظلالها على إنسان، امتدت هذه الظلال لتسبغ نغمتها على كل ما يمس حياته .. شأن الشقاء إذا ما عاند إنسانا لازمه كل حياته فأحالها بؤسا وشقاء ..

والشقة التي سكنها العاشقان كانت صغيرة وضيقة، والأثاث الذي وضعاه بها كان لا يزيد عن فراش ودولاب صغير بحجرة النوم وبضعة مقاعد ومنضدة بالصالة .. ثم لا شيء آخر عدا بضعة أطباق وأكواب وبابور جاز صغير في الركن الصغير الذي أطلقا عليه المطبخ ..

وحوائط الشقة كانت عارية من الصور أو الزينة، بل وكانت عارية من الدهان أيضا، وحتى الأرضية لم تنعم بسجادة ما من أي نوع.

بل ان الدولاب ذاته لم يكن به أكثر من قميصين وبنطلونين، وفستانين ولا شيء آخر ..

وبرغم ذلك كانت السعادة تعشش في ذلك العش الهادئ.

فمن قال إن السعادة لا تدوم مع الفقر ؟

كثيرون ينقص الفقر سعادتهم ويشقيها .. ولكن القلة هي من تروض السعادة بالقناعة والرضى .. والحب الحقيقي يصنع المعجزات بأيدي البشر.

وكانت معجزة أن يعيش الإثنان في ذلك المكان المقفر بأطراف العاصمة كل تلك الشهور .. بذلك القدر من السعادة ..

إن السعادة لا توهب .. ولكنها تنبع من قلب الإنسان.

وقد كان قلباهما فائضين بالسعادة ممتلئين بالحب.

ليلة زواجهما شهد إثنان من أصدقاء سامح على وثيقة الزواج .. وقضى العروسان الليلة يسيران على الكورنيش متقاربين ملتصقين يستمدان القوة من بعضهما .. استوقفهما ضابط شرطة مرتاباً فأبرزا له وثيقة زواجهما .. اندهش الضابط لحظة أن عروسين يقضيان ليلة زواجهما يسيران

بالطريق .. ولكن دهشته ما لبثت أن تحولت إلى أمنيات بالسعادة التي شاهدها تطل من عيونهما، كأنهما يقضيان أيام هنائهما « بالريفيرا ».

وضمتهما حجرة وفاء قرابة الفجر.

ولم يكن لديها فائض وقت ليقضيا شهر عسل .. أو حتى يوم عسل واحد .

اتفقا على كل شيء .. كانا يعرفان أن الأيام التالية ستكون أياماً صعبة ..

فالأيام الأولى دائماً صعبة .. وكانا بحاجة إلى مال وعمل.

وفي الصباح اتجهت وفاء لعملها وقابلت دهشة زملائها بابتسامة ثقة .. هنأوها على الزواج وانصرف كلٌ لشأنه .. أما سامح فلم يكن صعبا عليه الحصول على عمل بفضل خبرته بالشؤون المالية والادارية التي اكتسبها بعمله مع والده في شركاته ومصانعه العديدة.

الكثيرون اندهشوا أن ابن المليونير « عزمي رضوان » يعمل موظفاً لدى الغير وصوروا لأذهانهم شتى التصورات والأسباب، غير أن سامح أطبق شفتيه ولم يفصح عن السبب.

وعندما اكتملت للعروسين ألف جنيه من هدايا ونقوط الأصدقاء وزملاء العمل وأول مرتب لهما من عمليهما صباحاً ومساء في عملين مختلفين، أستأجرا تلك الشقة البعيدة بأطراف العاصمة.

وفي البداية كانا يفترشان سجادة على الأرض استعاراها من حجرة وفاء القديمة، وتحولت إلى فراش ودولاب مع مرتب الشهر الثاني .. ثم منضدة وبضعة مقاعد وأطباق ومعالق بعد شهر ثالث ..

وكلما كانا يشتريان شيئا جديداً يستران به شقتهما الرقيقة الحال، كان يخامرهما إحساس بانهما يملكان كنوز وقصور العالم كله .. وأنهما ينامان وسط الرياش والحرير ..

وبرغم أن المسافة بين شقتهما البعيدة ومكان عمليهما كانت تقتضي بالأتوبيس أكثر من ساعة ونصف ذهاباً ومثلها إياباً، فانهما لم يتأخرا عن عملهما دقيقة واحدة .. يذهبان معاً ويعودان معاً فلا يحسان بطول الطريق أو معاناة السفر .. وفي كل لحظة كان كل من يراهما يظنهما عاشقين ولهانين لمظاهر الحب البادية في تصرفاتهما .. كلماتهما .. همساتهما .. لمسات أصابعهما .. حديث عيونهما ..

صارا مضرباً للمثل في كل مكان يذهبان إليه .. وتحاصرهما العيون حاسدة متمنية .. وبدأت الشقة تمتلئ بمفروشاتها .. وطليت جدرانها .. وفرشت أرضيتها .. وامتلأ الدولاب ببعض الملابس التي حرماها على نفسيهما قبلاً.

وعند اكتمال العام اشتريا سيارة صغيرة قديمة بثمن قليل كان يلزم لتشغيلها مشوار من الدفع. فكانا يدفعانها ضاحكين سعيدين كأنهما يمارسان أجمل عمل في الوجود، وغنتهما السيارة عن الزحام والانتظار وعيون الفضوليين .. وأتاحت لهم الذهاب في نزهات بعيدة وحدهما.

وفي إحدى الليالي كانت تعد له العشاء.. نادته ضاحكة أن يأتي لمساعدتها كعادته ولكنه لم يلب نداءها.. كررت النداء فلم تسمع له صوتاً .. انتابها القلق وهرعت إليه فصرخت هلعاً عندما شاهدته ممدداً فوق الأرض بالصالة وقد علت وجهه زرقة خفيفة .. اسرعت تحتضنه وتريح وجهه فوق ساقيها وهي تناديه باكية .. بعد لحظات فتح عينيه الشاحبتين وبدأ يتمالك نفسه قليلاً .. عندما اطمأنت عليه كادت تندفع كالمجنونة تطلب طبيبا فأمسك ذراعها بوهن وطمأنها بأن

تلك النوبة من فقدان الوعي ليست جديدة عليه، وأنه يعاني منها منذ كان طفلاً فتأتيه على فترات بعيدة آخرها ليلة أن أنقذت حياته ..

احتضنته بخوف باكية كأنها تخشى أن تسلبه منها قوة ما، هتفت تطلب وعده ألا يقود سيارة وحده مرة أخرى فوعدها.

برغم اكتمال صحته بعد ساعات إلا أن وفاء لم يغمض لها جفن تلك الليلة وبقيت مسهدة لا تدري ما يخبئه لها المستقبل ..

وظل ذلك الخوف مستقرا في وعيها منذ تلك اللحظة فزاد من شرودها وبدد شيئا من سعادتها، برغم أنها تعلمت قيادة السيارة الصغيرة حتى تجنبه قيادتها، وطلبت إليه أن يكف عن العمل المسائي ويكتفي بعمل الصباح حتى يجنب نفسه الإرهاق. فرفض بإصرار قبل أن يتمكنا من إدخار مبلغ يسمح لهما باستئجار شقة في مكان قريب من عملهما بالعاصمة ..

وما لبثت مع الوقت أن اطمأنت وتبدد قلقها وخوفها رويداً .. وعادت سعادتها إليها كاملة غير منقوصة.

ذات صباح أحست وفاء أن سامح مرهق فرجته ألا يذهب إلى عمله .. وافقها بعد أن أخبرته أنها ستتصل بزملائه في عمله لتخبرهم بإعتذاره ..

إنتابها القلق والوساوس طوال اليوم .. وقرابة الظهر أحست بدوخة شديدة وفقدت وعيها، ولم تنتبه إلا وهي ممدة في عيادة طبيب نساء وهو يقوم بالكشف عليها، وما لبث أن قال لها الطبيب باسماً : مبروك .. إنك تنتظرين طفلاً. لم تصدق أذنيها .. انتابتها سعادة طاغية وكانت تريد أن تهرع إلى حبيبها فوق بساط الريح لتزف له النبأ ..

أسرعت إلى سيارتها وطارت بها إلى المنزل ..

وضعت مفتاحها في باب الشقة وفتحته واندفعت لاهثة .. ما كادت تخطو للداخل حتى أوقفتها الكلمات الصادرة من حجرة نومها والتي اصطكت بسمعها وتذكرت الصوت على الفور ..

كان والد سامح يقول له ساخراً : أهذا هو العش السعيد الذي تنعم به .. هذه الشقة التي تشبه جحراً للأرانب .. كيف أمكنك أن تعيش بها كل هذه المدة .. وإذا كانت

بهذا السوء وهي على هذه الحال المزرية فكيف كانت وهي خالية من الأثاث وبلا طلاء.

وجاءها صوت سامح واهناً يسترجي والده : أرجوك يا والدي.

قاطعه الأب بخشونة : كيف لم تفق من أوهامك كل هذا الوقت يا سامح .. كيف احتملت هذه الحياة القاسية وأنت الذي اعتدت الحياة المرفهة السعيدة، تأمر فتجاب أوامرك في الحال .. تغترف من المال كل ما تريد بلا حاجة إلى إستيقاظ مبكر وعمل شاق لدى الغير .. تعيش في قصر وتمتلك سيارة أحدث طراز ودفتر حسابك في البنك بالملايين .. كيف .. كيف تضحي بكل ذلك .. ومن أجل من ؟

ــ من أجل من أحببت يا والدي .. من أجل وفاء.

هتف به الأب بحنق شديد : ألا تزال تتفوه بتلك السخافات .. ألم تكتشف حقيقة هذه التافهة التي حرمتني منك وحرمتك مني .. إنني والدك يا بني وأنا أحبك .. أحبك وقد تحملت بعادك عني معذباً متألماً وجئت إليك

أطلب رجوعك لي .. عد يا ولدي فتعود حياتنا كما كانت وأشهى.

ــ فات الآوان يا والدي .. حياتي مع من أحب لا يمكن أن يعوضها شيء آخر في هذا العالم .. هنا .. في هذا المكان الذي تشبهه بجحر الأرانب وجدت سعادتي التي لم أجدها في أي مكان آخر بالعالم .. هنا مع وفاء إرتاح قلبي واستقر فلم أشعر بقسوة الحياة وشظفها، ولم أحس بحرماني مما حرمت واعتدت عليه من أموال وعيشة رغدة، لم أحس أنني أفتقد كل هذه الأشياء لأنها لم تمنحني السعادة أن أصنع نفسي بنفسي وأن أكون ما أريد، لا ما يريده غيري.

قال الأب بألم : افق يا ولدي .. افق فلا زلت أمدُّ يدي إليك .. دع هذه المرأة وعد إليّ فتعود حياتنا كما كانت.

وجاءها صوت سامح متألماً وهو يقول : كيف تريد يا والدي أن تحرمني من أجمل ما في حياتي .. إنني أحب وفاء ولن يفرقنا شيء إلا الموت.

نهض الأب صامتاً وأطرافه تختلج .. ارتجفت وفاء وهي

تشاهده يخطو خارجاً إلى الصالة .. كانت تحس بعذابه .. تتمنى لو أنه يصفح عنها .. لو أنه بارك زواجهما .. لو أنه سمح لها أن تجثو تحت قدميه طلبا لمحبته وسماحه .. ولكنه رمقها بنظرة حادة أودعها كل كراهيته ..

وأشار إليها بأصابع نارية وهتف بصوت متحشرج : أنت السبب .. أنت السبب .. إنني أكرهك .. أكرهك وأتمنى لك الموت.

واندفع خارجا يغادر المكان ..

وانهارت فوق اقرب مقعد باكية منتحبة .. ولم تحس إلا وذراعي سامح تطوقانها وتمسحان دموعها.

قال لها : ليس لك ذنب فيما حدث.

قالت والدموع تتجمع في عينيها من جديد : كنت أتمنى صفحه وغفرانه بدلاً من لعناته.

قال بحزن : أبي لم يقصد ما قاله .. إن لأبي قلب كبير، وهو يظن أنني أشقي نفسي بيدي، أنه لا يشعر السعادة التي أعيشها معك.

قالت بمرارة : ليتني مت ولا سمعت ما قاله.

هتف بانزعاج: لا تتمني ذلك ثانية.. أيطاوعك قلبك

على تركي وحيداً في هذا العالم .. وليس لي به سواك.

ارتمت بين ذراعيه باكية مرة اخرى .. أجلسها برفق بجواره وهو يمسح دموعها من جديد، قالت له بوهن ورجاء : سامح .. أرجوك .. عد إلى أبيك .. عد إليه واطلب غفرانه وسماحه .. لا يمكنني أن أفرق بينكما بتلك الصورة وأسبب التعاسة لوالدك المسكين.

هتف محتجاً : ماذا تقولين يا وفاء .؟ إن والدي يشترط لعودتي أن ننفصل .. وأنا لا أستطيع أن أنفصل عنك ولو كان الثمن ملايين هذا العالم.

ـــ ورضاء أبيك ؟

ـــ سيرضى يوماً .. تأكدي أنه يوماً ما سيباركنا ويطلب سماحنا على مشاعره السابقة.

لاذت بين ذراعيه بصمت وسكينة.. أغمضت عينيها كأنها ستنام في دفء أحضانه.. قبَّلَ مفرق شعرها وقال لها: أنت متعبة.

همست له : نسيت تعبي وإرهاقي حالما رأيتك واطمأنت عليك.

قال باسما : أنا بخير ..

رنت إلى عينيه وهي تريد أن تنطق بالخبر السعيد ..
قال لها وهو يتمعن في ملامحها : هناك من الأخبار السارة ما تودين إبلاغي بها.

هزت رأسها بفرحة، تساءل بسرور : ترى أن الأخبار السارة تحملينها لي ؟

ردت هامسة : سامح .. سوف تصبح أباً بعد شهور قليلة.

اتسعت عيناه بفرحة ذاهلة، أفلتها من ذراعيه وصرخ غير مصدق : سأصير أبا ؟

هزها بفرح جنوني وهو يهتف بها : أحقاً يا وفاء .. هل سأصير أباً .. سيكون لي طفل .. ابننا.

هزت رأسها تؤكد ما قالته .. لم تره عمرها بمثل تلك السعادة الطاغية .. وإن كان للسعادة درجات فقد كان بقمتها .. أخذ يدور حول نفسه ويرقص .. جذبها من ذراعيها وراح يلف بها في الحجرة الضيقة .. يضحكان ويقهقهان ..

توقف منتبها ونظر إليها قلقا وهو يقول : يجب أن تستريحي من الآن .. لا عمل .. لا خروج .. راحة تامة ..

وحتى امتحانات هذا العام في كليتك ستؤجليها إلى العام القادم بعد مجيء الطفل.

قالت ضاحكة وهي تلتقط أنفاسها لاهثة : إن الطفل لن يجيء قبل شهور .. الطبيب أخبرني أنني أستطيع ممارسة حياتي العادية حتى الشهر الثامن من الحمل.

هتف بها : هراء .. وماذا يعرف الأطباء أكثر من الآباء .. أنا أبوه وأعرف مصلحة ابني وزوجتي .. منذ الآن راحة تامة ..

قالت برجاء : الطفل بحاجة إلى مطالب كثيرة فلا تفقدنا مالاً هو إليه من وظيفتي.

قال معترضا وهو يهز رأسه رافضاً : قلت انني أبوه وأنا المسؤول الأول عنه .. يجب أن يلاقي ولي العرش من الآن كل عناية وراحة وألا تجهد مليكتي نفسها بأي عمل.. حتى أعمال المطبخ والنظافة سأقوم بها.

وحملها برفق كملكة متوجة فأرقدها فوق فراشها، وقال لها وهو يمسح بكفه فوق جبهتها : والآن بماذا تأمر مولاتي والدة طفلي ؟

لم ترد وحدقت في عينيه تسبح في بحر حنانهما ..

وفي هذه اللحظة أحست بسعادة العالم كله في دفء عينيه وحرارة قلبه، وتمنت لو استطالت هذه اللحظة وامتدت إلى عمرها كله ..

ولم تدر إلا وهي تجهش بالبكاء برغمها وتتعلق برقبة من أحبت ووهبت حياتها فداء له.

« عملية عاجلة »

كانت راقدة في فراشها تعاني الآلام المتقطعة .. قالت لها الطبيبة التي زارتها منذ يومين أنها لن تلد قبل أسبوع .. ولكنها برغم ذلك تخشى أن تأتيها آلام المخاض الآن ..

نظرت في ساعة المنبه .. العاشرة مساء .. تأخر سامح على غير عادته الليلة وهي تخشى عليه من البرد في الخارج، فقد جاء ذلك الشتاء قارس البرودة .. في التاسعة يكون عندها برغم أنها منعته من ركوب سيارتهما الصغيرة خوفاً عليه من نوبات الإغماء التي تكررت ثلاث مرات في أشهر قليلة.

قلبها منقبض .. برغم آلامها وأوجاع الولادة التي تقترب، فقد كانت تحس لانقباضة قلبها آلاماً أشد.. كانت تخشى على سامح .. كان يجهد نفسه في عمله الأيام الأخيرة،

حتى إجازاته كان يعمل بها ليزيد من دخله استعداداً للطفل القادم .. قال لها باسماً في المساء السابق : عندما يأتي طفلنا فسوف نوافق فوراً على من يختارها قلبه .. ففي سعادته هناؤنا.

فما الذي أخرَّه للاطمئنان على طفله الذي هام به قبل أن يجيء ؟

دق جرس الباب .. هتف قلبها بفرحة طاغية، ها هو قد عاد أخيراً .. وبرغم تحذيرات الطبيبة من الحركة العنيفة قفزت من فراشها وأسرعت إلى الباب لتفتحه .. قبل أن تمتد يدها إلى مقبض الباب تذكرت أن سامح يملك مفتاحا للباب وأنه يستخدمه دائماً في الدخول حتى لا يزعجها بمغادرة فراشها ..

فتحت الباب وهي تتوجس شراً مستطيراً .. طالعها وجه زميل لسامح يعمل معه بنفس الشركة، حملقت فيه ذاهلة وهتفت به في رعب : سامح .. هل جرى له شيئا ؟

قال الزميل بصوت حمل بعض التوتر : أرجوك لا تنزعجي .. إنها مجرد نوبة إغماء وقد نقلناه إلى المستشفى.

هتفت بذعر : مستشفى ؟

قال الزميل محاولاً تبديد إنزعاجها : كنا مضطرين إلى ذلك بعد أن طالت نوبة الإغماء عن كل مرة.

صرخت بلوعة : سامح .. ماذا جرى له .. أرجوك أخبرني بالحقيقة.

قال الزميل بتوكيد : صدقيني هذا هو ما حدث، وقد جئت إليك لأصطحبك لرؤيته بالمستشفى.

هتفت به وهي تدفعه خارجاً، هيا بسرعة فلا وقت.

أسرعت تقفز السلالم والزميل يتبعها صامتا .. اندفعت نحو السيارة الصغيرة فأشار الزميل إلى سيارة أخرى كبيرة وقال : لنأخذ سيارتي.

لم تعترضه .. انطلقت السيارة بهما وقد عصفت الأفكار المخيفة برأسها .. حدثها قلبها أن مكروها قد حل به، وها هي الأحداث تثبت صدق ظنها.

وهتفت برجاء والدموع تبلل عينيها : يا رب.

والتفتت للزميل الذي كان ينهب الطريق بسيارته وسألته بصوت مقتول بالخوف : وهل كان لا يزال فاقداً وعيه عندما اتيت لإخباري ؟

رد بذهن مشتت : نعم.

نما قلقها وخوفها وتعاظما حتى صارا مثل أشباح ضخمة ترقص في سواد الليل أمام عينيها .. هتفت في رجاء بعيون مملوءة بالدموع : أرجوك .. زد من سرعة السيارة.

وداس الزميل فوق دواسة البنزين لتسابق السيارة الريح ..

وما كادت السيارة تتوقف أمام المستشفى حتى قفزت منها والزميل بأثرها، واندفعت إلى حجرة سامح كالمجنونة ..

وشاهدته ممدداً فوق الفراش بوجه أزرق شاحب وعيون مغلقة وصدره يعلو ويهبط ببطء وقد علقت بذراعه حقنة جولوكوز ..

اندفعت نحو زوجها باكيةً تحتضنه وتقبل جبهته وتبلل وجنتيه بدموعها .. أبعدها الطبيب برفق قائلاً لها : أرجوك .. هذا لن يجدي.

التفتت للطبيب ذاهلة وسألته : هل سيظل طويلا في إغماءته ؟

قال الطبيب بوجه بارد : إنها ليست إغماءة .. إنه واقع في غيبوبة.

حملقت وفاء في الطبيب غير واعية .. لم تستطع

الكلمات أن تتسلل إلى عقلها في الحال، كأن عقلها يرفضها وينبذها.

تمتمت بلا وعي : غيبوبة ؟

قال الطبيب بصوت به رنة إشفاق : نعم .. ولا أحد يدري متى سيفيق منها ..

نظرت نحو الطبيب بأنفاس متصاعدة ذاهلة، وأكمل الطبيب: إن زوجك مصاب بعيب خطير في قلبه، وهو بحاجة إلى عملية في قلبه بمستشفى خاص خلال ٢٤ ساعة على الأكثر.

صرخت بلا وعي : لا .. مستحيل .. مستحيل.

قال الطبيب بهدوء : أرجوك تمالكي أعصابك .. لن يفيد الصراخ والبكاء .. عليك بتدبير مبلغ العملية فإنها ستكلف الكثير ولن يسمحوا بإجرائها قبل دفع هذا المبلغ للمستشفى الخاص.

ابتلعت دموعها وسألت الطبيب: وكم تكلف العملية ؟

رد بعد لحظة : حوالي عشرة آلاف جنيه .. إنها عملية دقيقة جداً.

مادت الدنيا بها.. عاودها إحساسها انها تسقط في

هوة لا قرار لها .. ولكن لم يكن لها ملجأ أو ملاذ هذه المرة .. تشبثت بحافة الفراش حتى لا تسقط فاقدة الوعي .. انهمرت الدموع من عينيها وامسكت بكف زوجها تقبله وتحتضنه وتمسح به فوق وجنتيها وهي تشهق بالبكاء.

قال لها الطبيب برجاء : أرجوك تمالكي نفسك .. ومن الأفضل لك أن تغادري الحجرة في الحال.

استندت على ذراع الزميل وغادرت الحجرة .. شهقت بالبكاء بالخارج. فقال لها الزميل مواسيا: أرجوك.. إن سامح يطلب منك أن تتماسكي.

نظرت إليه ذاهلة وغمغمت : سامح ؟

قال الزميل بهدوء : كان يعلم أنه مصاب بذلك المرض منذ شهور ولم يشأ إزعاجك .. ويبدو أن كثافة العمل وزيادته عجل بالغيبوبة .. وقد أوصاني أن أعتني بك.

صرخت بجنون : لا .. إن سامح سيعيش .. سيعيش ليعتني هو بي .. يعتني بي وبابنه .. سوف يعيش .. ستجرى له العملية ويعيش ..

واندفعت كالمجنونة تغادر المستشفى .. لطمت قطرات

المطر وجهها فأغرقتها.. راحت تسير هائمة في الطرقات ذاهلة غير واعية..

كان بعقلها فكرة واحدة .. لا بد أن يعيش سامح .. ولا بد أن تجري له العملية .. ولا بد أن تدبر له العشرة آلاف جنيه بأي وسيلة.

ولكن كيف .. من أين تأتي بالعشرة آلاف وكل ما يملكانه الف جنيه يتيمة أودعها سامح في البنك لنفقات طفله عند الولادة .. والسيارة إذا بيعت فلن يزيد ثمنها عن ضعف هذا المبلغ، فمن أين لها باستكمال العشرة آلاف.. وليست لها إلا سلسلة ذهبية بها قلب صغير إشتراها لها سامح في عيد ميلادها السابق .. ولكن بماذا ستفيد عشرات من الجنيهات إذا ما بيعت السلسلة ..

كان الملجأ الوحيد هو والد سامح .. ما إن يعلم الرجل بالخطر المحلق فوق حياة ابنه فسوف يبادر بإجراء العملية على الفور مهما بلغت تكاليفها. ولكن لا .. هزت رأسها بعنف.. لقد أوصاها سامح ووعدته.. لن تلجأ لأبيه أبداً .. وهي لا تستطيع أن تنكث وعداً لحبيبها أبداً .. بل إنها لن تخبر والده بمرض سامح لأنه إذا عرف ذلك

بادر بنقله للمستشفى الخاص وتحمل تكاليف العملية .
سوف تتدبر المبلغ بأي وسيلة .. ولن تلجأ للاقتراض أو الاستدانة من أحد .. إن زوجها لم يستدن أو يقترض طوال حياته، ولا يمكنها أن تفعل ما كان يرفضه دائماً ..

وقر قرارها على ما ستفعله .. ستبيع كل ما يمتلكان حتى شقتهما الصغيرة بكل أثاثها، لتسدد قيمة العملية.

عادت لشقتها وقضت الليل تتلظى على نار.. لم تجف دموعها .. كان سامح يعلم بمرضه وأخفى عنها الحقيقة حتى لا يكدر هناءها .. وتحمل وحده الآلام بدون أن يشعرها بها.

وهي لن تتخلى عنه أبداً .. أبداً .. وستعاتبه .. ستعاتبه عندما يشفى أنه لم يخبرها ولم يشركها آلامه.. وستعود أيامهما الحلوة ثانية .. ستعود وتكتمل بولادة طفلهما .. ما أجمل السعادة التي تجيء بعد عناء وشقاء وآلام. لمع نور الصباح أخيراً .. غادرت مسكنها إلى قهوة قريبة يجلس عليها مالك البيت الذي تقيم به، فقد كان يعمل سمسارا يمتهن في القهوة مكانا مستديما لعمله .. تغلبت على آلامها وأوجاعها وحاولت أن تتماسك، عرضت على الرجل أن

يشتري الشقة ويدفع لها خلوا .. اندهش الرجل فأبرزت له توكيلا من سامح يتيح لها أن تتصرف وحدها في كافة ممتلكاتها .. سألها الرجل عن السبب فأخبرته بحاجة سامح إلى العملية.

هتف الرجل بإشفاق كاذب : لا حول ولا قوة إلا بالله.

وبلهجة عملية سألها : هل ستبيعين العفش أيضا ؟

هزت رأسها موافقة بسرعة، فكر الرجل لحظة ثم قال لها : سأشتري الجميع بثلاثة آلاف جنيه.

هتفت بذعر : ثلاثة آلاف جنيه فقط .. إن العفش وحده يساوي أكثر من ذلك.

هز كتفه بلا مبالاة قائلا : إذن إذهبي وبيعيه في مكان آخر .. إنني في ظروف أخرى ما كنت أدفع نصف هذا المبلغ لولا ظروف زوجك السيئة.

كادت تبكي قهراً .. وافقت في النهاية .. وقعت على ورقة البيع للعفش والتنازل عن الشقة .. لملمت ملابسها وملابس سامح وملابس المولود المنتظر في حقيبة كبيرة وغادرت مسكنها لآخر مرة بعد أن ألقت عليه نظرة أخيرة.. ولم تبكِ.. كان عليها أن تتماسك من أجل سامح..

عرض عليها الرجل أن يشتري السيارة أيضاً.. باعتها له بألفي جنيه .. وذهب إلى البنك وسحبت الألف جنيه فتجمع لها مبلغ ستة آلاف ومائة بعد أن باعت السلسلة الذهبية. أشرق الأمل في صدرها وهي تمسك بالمبلغ في يدها بأصابع متشنجة .. أسرعت إلى المستشفى الخاص وعرضت على المسؤولين بها أن تترك لهم ما معها من نقود على أن تستكملها بعد العملية، وأنها مستعدة أن توقع شيكا بالمبلغ الباقي، ولكن مدير المستشفى رفض وأصر على دفع المبلغ بالكامل قبل إجراء العملية ..

كان الوقت يجري .. ولم تبق إلا ساعات قلائل على المهلة الباقية لإجراء العملية.. واستندت إلى باب المستشفى تبكي بمرارة لا حد لها، وهي تحس بعجز قاهر لا سبيل لها إلا دفعه.

« حبيب العمر »

ارتمت فوق صدره باكية.. تشبثت به كأنها تخشى أن يفلت من بين أصابعها.. زاد نحيبها، قبلت وجهه الذي اكتسى بزرقة باهتة وعينيه المغلقتين اللتين حلقتا في عالم الغيبوبة.

وكانت زجاجة الجلوكوز لا تزال معلقة بأعلى تمتد منها أنبوبة طويلة ينساب منها سائل إلى ذراعه المستكينة بلا حراك.

قالت له باكية : إني عاجزة .. يا سامح .. عاجزة ومسلوبة الارادة.. لماذا تركتني هكذا.. اعتدت دائماً أن تحمل عني كل مسؤولية وتدبير فلماذا تركتني في أصعب المواقف .. لماذا لا تنهض وتغادر هذا الفراش وتتخلص من تلك الحقنة اللعينة كأنها شاهد على مرضك وعجزك،

لماذا لا تعود كما كنت دائماً .. تعود إليّ فألوذ بأحضانك وذراعيك.. إنني بدونك عاجزة مشتتة لا إرادة لي ولا قوة..

أمسكت بالنقود بيد مرتعشة ومدتها أمام عينيه المغلقتين ودموعها تغرقها وقالت له : ها هو كل ما جمعته من مال، ولكن الثمن لا يزال ناقصاً .. لم يعد لدي شيء آخر أستطيع بيعه .. حتى عشنا الصغير بعته .. ستعوضني عن كل شيء عندما تصير قادراً على أن تغادر هذا الفراش .. إنني أنتظر أوبتك فما الذي يبقيك بعيداً عني ..

ومسحت دموعها بظهر يدها، امسكت يده القوية وقبلتها، دفئتها مكان قلبها وقالت له : سامحني يا سامح .. ليس أمامي من طريق آخر .. لا يمكنني أن أراك تموت وأقف عاجزة .. أضحي بعمري كله لأمنحك ساعة عمر واحدة .. أرجوك سامحني .. لقد وعدتك ألا ألجأ إلى والدك، ولكن لم يدر بعقلي أبداً إنني سأتعرض لهذا الموقف، أو أن حياتك بل حياتنا ستتوقف على مساعدته .. سأذهب إليه .. فليشمت بي .. فليسبني .. فليجرحني ويهينني، فليطردني أو ينعتني بالخادمة، كل هذا سأتقبله راضية من أجلك .. من أجل أن يأتي ويدفع ما تبقى من

المال لإجراء العملية.. ليتك يا حبيبي استمعت إليه وتركتني وقتها. ما كان المال سيعوزك ويتقرر عليه مصيرك وحياتك.. كان ذلك عندي أهو ألف مرة من أن أراك ممدداً في فراش المرض والعجز..

دخل الطبيب الحجرة .. حاولت أن تتماسك، ألقت على حبيب العمر نظرة أخيرة وتراجعت ببطء.. وغادرت الحجرة وهي تشهق بالبكاء لا تكاد ترى أمامها.

اندفعت إلى فيلا الأب .. اعترضها في مدخلها جنايني عجوز أوقفها متسائلاً فقالت تسترجيه بصوت مشروخ منتحب : أرجوك .. أخبر الاستاذ عزمي أن زوجة ابنه تريده في أمر هام .. أمر هام جداً يتوقف عليه مصير حياة إنسان.

حدق فيها العجوز بدهشة وتساءل : أنت زوجة سامح بيه ؟

هتفت به باكية : أرجوك .. لا وقت هناك ..

سار العجوز ببطء إلى داخل الفيلا .. ومرت عليها الثوان كالدهور ..

تبدى لها أخيراً والده مرتدياً روباً طويلاً واقفاً بأعلى

درجات السلم المفضية للداخل .. وقف يحدق فيها في غضب وقسوة.

اندفعت إليه، جثت تحت أقدامه وكادت تقبلها، هتف بها بصوت ملؤه الإحتقار: ماذا تريدين ؟

تشبثت به باكية وهي تقول : إن سامح بحاجة إليك .. لقد وعدته ألا ألجأ إليك أبداً مهما كان احتياجنا وعوزنا، ولكن الأمر لم يعد بيدي .. لم يعد بيدي ..

ارتسمت ابتسامة ظفر فوق شفتي الأب وقال : كنت أعلم أنه سيحتاج إليّ في النهاية .. هل خجل أن يأتي ليطلب معونتي فأرسلك أنت تتسولين بدلاً منه ؟

قالت بمرارة كست كلماتها: لو كان سامح قادراً على الحركة أو النطق ما سمح لي أن ألجأ إليك أبداً .. إن سامح يموت وبيدك وحدك إنقاذه.

اكتست ملامح الأب بتعبير طاغ من الذهول، اندفع نحوها كالمجنون وصرخ بها وهو يهزها بعنف : ماذا تقولين .. هل قلت إن سامح سيموت ؟

ردت منتحبة : إنه في إغماءة منذ مساء الأمس وبحاجة إلى عملية عاجلة تتكلف عشرة آلاف جنيه .. لقد بعت

كل ما نملك، حتى ملابسنا بعتها فلم أجمع سوى ستة آلاف فقط .. لا أريد منك اكثر من بقية المبلغ وسنسدده لك بعد شفاء سامح.

صرخ بها في ذهول : ماذا تقولين أيتها البلهاء .. ابني يموت منذ الأمس وأنا لا اعرف .. في أي مستشفى .. انطقي أيتها الشقية.

هتفت به : سأذهب معك.

اندفع الأب بملابسه المنزلية كحيوان متوحش أطلق سراحه .. قفز السلالم إلى سيارته أمام باب الفيلا .. أدارها وانطلق بها بعد أن لحقته وفاء .. شاهدت الدموع تنسال من عيني الأب وهو يقود سيارته ويتمتم : سامح .. ابني .. أنت بحاجة لي وأنا لا أعلم .. كيف طاوعني قلبي يا ولدي .. كيف

اشتركت معه في البكاء بنشيج مكبوت ..

قفزا السلالم وممرات المستشفى .. اندفع الأب هائجاً داخل حجرة ابنه صارخاً في الأطباء : انقلوه فوراً .. انقلوه إلى المستشفى الخاص .. أيها الأغبياء لماذا لم تخبروني منذ اللحظة الأولى.

لأول مرة شمل قلب وفاء شيء من السكينة في جوف سيارة الإسعاف التي انطلقت بالمريض الممدد داخلها الى المستشفى الخاص بسرعة بالغة.

وفي المستشفى الخاص انهمك كبير جراحي القلب مع مساعديه في فحص المريض الراقد بلا حراك أمامهم وشاشات الأجهزة الطبية المتصلة بأسلاك إلى جسد المريض ترسم خيوطا وأشكالاً متعرجة واهنة الحركة.

وراحت وفاء تراقب الخطوط بصمت وخوف لا تفهم منها شيئا، ولكنها تحس أنها قد تحدد مصير زوجها. وهتف الأب بصوت مبحوح في الأطباء : ماذا تنتظرون ؟ ردَّ كبير جراحي القلب بهدوء : إن حالة ابنك خطيرة جداً .. والأمل في نجاح العملية لا يتعدى عشرة بالمائة، فهذه العملية كان من الواجب أن تُجرى منذ سنوات بعيدة.

غاص قلب وفاء بين ضلوعها، وعصرتها موجة من الخوف الشديد وتهدج صدرها بأنفاس الرعب.

وهتف الأب بصوت متحشر. : إنني .. إنني لم أكن أعرف أنه مريض .. وكل ما كان يشكو منه هو نوبات ضعف وإغماء متقطعة لم يعرف لها الطبيب سبباً وانشغلت

عنه بعملي .. أرجوك يا دكتور أبذل كل ما في وسعك .. إنه ابني الوحيد.

وأجهش الأب بالبكاء كطفل صغير ..

ورانت فترة من الصمت قال بعدها الجراح الكبير : سوف توقع على تعهد بأن يكون إجراء العمليـة على مسؤوليتك.

انسالت دموع الأب وهو يقول : إنني مستعد أن أفعل أي شيء .. ولكن انقذوا ابني من الموت .. انقذوه ولو كان الثمن حياتي ..

واخيرا ضمت جنبات حجرة العمليات الجسد المسجى الغارق في الغيبوبة .. وانهمك فريق الأطباء والجراحين في عملهم الخطير ..

وفي الخارج وقفت وفاء ووالد سامح الذي بدا وكأن عمره قد زاد عشرين عاماً في ساعات قلائل .. كان صدره يتهدج ويعلو ويهبط بشدة، يحدث نفسه بكلمات غير مفهومة، ويشيح بيده ويخبط الأرض بعنف كأنه على وشك

الإنهيار أو الجنون.. وكل ما تفوه به من كلمات ذات معنى هو ترديده المستمر لكلمات، سامحني يا ولدي .. ولم يستطع منع دموعه الحبيسة التي انهمرت فوق صدره. ووقفت وفاء عاجزة ساهمة تحس أن خفقات قلبها قد التصقت بدقات حبيب العمر الراقد تحت مبضع الجراحين بالداخل .. تشعر أن مصيرهما في ذلك العالم واحد وأن أيدي الجراحين بالداخل ومن قبلها يد الله ستتوقف عليهما حياتها. لم تستطع البكاء، أو ذرف الدموع .. استنفدت كل رصيدها منه، وربما لو بكت لخفت أحزانها وأوجاعها التي تفتت كبدها ..

كانت موقنة أنه سيعود إليها .. سيخرج نابضاً بالحياة والقوة والإرادة.. يجب أن يعيش لأجلها ولأجل ابنه.. ابنه الذي جن فرحاً به ولم تسعفه الساعات لاستقباله لحظة سيجيء إلى العالم ..

يجب أن يعيش لأجلها هي .. لأنها بدونه لا حياة لها .. فهي منذ عرفته وأحبته وتدفقت شرايينها بدمائه عاشت .. ومن بعده لا يكون لها حياة أو رجاء .. تذوي وتذبل وتموت حالاً، كوردة اجتثوا جذورها من أرضها ..

إنه سيعيش .. سيعيش لأجلها ولأجل ابنه لأجل سعادتهم .. سيعيش ليعوضهما تلك الساعات المؤلمة التي مرت بها كالكابوس المخيف .. سيعيش ليعدها بألا يعرضها لمثل تلك الأوقات العصيبة مرة ثانية.

سيعيش ليبدئا من جديد .. سيكون نجاح العملية هو الميلاد الجديد لحياتهما معا .. سيعوضان كل شيء .. الشقة .. المفروشات والسيارة .. كل شيء .. ولكن شيئا ما لا يمكن أن يبدأ بدونه.

سينهض من فراش مرضه قوياً عفياً ليعود فيستردها بين أحضانه .. كم اشتاقت لذراعيه التي ما أحست بالأمان إلا في حضنهما.

كم اشتاقت إلى نظراته الحانية، لمساته الدافئة الحنون، كلماته التي حلقت بها في سموات لم تكن تدري لها وجودا ..

سيعود لها حتماً لأن الإرادة تنتصر على كل الأوجاع والآلام.. وقد شبعت أوجاعا وآلاما.. وكم تشتاق إلى لحظة سعادة خاطفة .. وكم مرت سريعا ساعات الهناء

بينهما مثل وميض برق ساطع في ليل الأحزان الطويل ..

يا رب.. إني التجئ إليك لتبقيه من أجلنا.. من أجل هذه القلوب التي تحبه وتحتاجه.

وشرعت في الصلاة بقلبها وهي واقفة صامتة، شفتاها لا تنفرجان .. واتتها دموعها أخيراً بلا إرادة منها ..

أتت ممرضة بمقعد للأب فدفعها بوحشية صارخاً : لا أريد شيئا .. ابتعدوا عني .. ابتعدوا جميعا عني ..

واندفع ثائراً نحو حجرة العمليات وهو يصرخ : أريد ابني .. أريد ابني حيا .. على الفور تجمع حوله بعض الأطباء ليمنعوه من الدخول فانخرط بين أيديهم في بكاء طويل ..

وأحست وفاء بوهن شديد .. لم تعد ساقاها تستطيعان حملها وطفلها كامل التكوين ببطنها .. التجأت إلى أقرب مقعد وارتمت فوقه وهي تحس بآلام الولادة وشيكة.

ومرت ساعات بطيئة مميتة ولمبات حجرة العمليات مضاءة ..

وأخيراً انفتح باب الحجرة فتيقظت وفاء من ذهولها.

واندفع الأب كالمجنون نحو كبير الجراحين صارخاً : طمئنني يا دكتور.

وواجهه الطبيب بوجه شاحب : لقد بذلنا كل جهدنا ساعات طوال .. ولكن إرادة الله أقوى.

وارتمت وفاء فوق الأرض بلا حراك.

« الحياة لا تتوقف »

حجرة العمليات مضاءة .. سكون وقلق وتوتر يسودان وجوه الواقفين .. الأم مسجاة غائبة عن الوعي بلا تخدير، وطبيب التوليد برغم مهارته كان يبدو متوترا يخاف من شيء ما ..

كشفت الأجهزة والأشعة أن الجنين في وضع عكسي مقلوب، وأنه يتخذ موضعاً يجعل عملية الولادة صعبة وخطرة على حياة الأم ..

وكان من الممكن إخراج الطفل بعملية قيصرية ولكن وهن الأم وضعفها الشديدين ما كان يحتملان مخدراً وقد يؤذي قلبها الذي أجريت له عمليات تنشيط صناعية. وحتى الأجهزة العديدة المنتشرة بالحجرة نبضت شاشاتها وخطوطها بالتوتر والترقب ..

كان الطبيب المولد يدرك بحكم خبرته أن ثمة أملاً مهما ضاقت السبل، وعلمته التجربة أن يحاول وألا ييأس قط، مهما كانت الحالة لا رجاء منها .. فرحمة الله لا يصيبها يأس أبداً ونفحاته صنعت معجزات عديدة صادفها في حياته كطبيب وجراح ..

فريق الأطباء كان يرمقه بإشفاق .. خامرهم كثير من اليأس وودوا لو غادروا الحجرة .. واجهوا حالات مشابهة كثيرة في أغلبها لم ينج إلا واحد من اثنين .. الأم أو الجنين .. وفي حالات كثيرة قبض ملاك الموت على الروحين المسجيين يستمد احدهما حياته من الآخر المعلق بمشيئته.

أخيراً استجاب الطفل .. خرج بين ذراعي الطبيب بعد مجهود مضن .. وتعالى بكاء الطفل وصراخه حالما تنفس الهواء بعيداً عن أمه ..

على الفور تلقت احدى الممرضات الطفل الذكر، وانصب إهتمام الجميع نحو الأم المسجاة في إعياء وقد خفت دقاتها .. بقليل من التنشيط والأكسجين النقي بدأ قلبها يستعيد نشاطه من جديد ..

التمعت ابتسامة راحة فوق وجوه فريق الأطباء، واحتضنت الممرضة الطفل الباكي وسقطت من عينيها دمعتان ..

كانت موقنة أن ثمة معجزة تمت منذ لحظات في ذلك المكان.

فتحت وفاء عينيها بضعف وإعياء .. عقلها مشوش مضطرب كأنه كان غائبا في رحلة بعيدة لا تدري عنها شيئا ..

بدأت الحقائق تتسارع إلى وعيها.. وسمعت أذنيها عبارة الجراح الشاحب الوجه وهو ينعي حبيب العمر .. أخفت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء بصوت عال ..

أدركت عمق الفاجعة فأخذت تنتحب بشدة ..

دخل إلى الحجرة أحد الأطباء وممرضة، اندفع إليها الطبيب قائلاً برجاء : أرجوك .. الانفعال الشديد يضرك فإن صحتك لا تزال واهنة.

قالت باكية: لماذا تركتموني أعيش.. لماذا لم تدعوني أموت لألحق به في دنياه الأخرى.

رد الطبيب بحنان : إن الله كان رحيماً بك فعشت

برغم ما تعرضت له من خطر .. عشت لأجل ابنك.

تمتمت ذاهلة : ابني ؟

وفي تلك اللحظة تعالى بكاء الوليد الراقد بجوارها على الفراش ولم تنتبه إليه من قبل .. أدارت وجهها كالمسحورة فشاهدت طفلها الصغير يبكي على يسارها .. تصاعد الذهول إلى عينيها على اتساعها .. إنه يشبه إبيه تمام الشبه .. يشبه الحبيب الغالي الذي مضى كأنه قطعة نحتت منه .. امتدت يدها بلهفة جنونية ورفعت الطفل لتحتضنه بين ذراعيها في قوة وهي تشهق بانفعال شديد.

قالت الممرضة : كانت ولادة طفلك صعبة جداً .. وفي حالات كثيرة مماثلة كنا مضطرين للتضحية بالأم أو الجنين .. ولكن يد العناية الإلهية منحتكما الحياة.

قالت باكية : وهو .. حبيب العمر .. لماذا اختطفه الله وحرمني منه ؟

قال الطبيب : لا تعترضي على مشيئته .. في الحياة والموت توجد حكمة قد لا تبصرها عيوننا.

وبرجاء أكمل: ومن أجل ولدك الذي يحتاج إليك أرجوك عدم الانفعال الشديد لأنه يهدد حياتك.

ضمت الطفل بإشفاق .. وكف الطفل عن البكاء وهو يحس بدقات قلب أمه تدفئ صدره.

وفي المساء غادرت المستشفى .. حملت وليدها فوق ذراعيها، وفي الخارج لفحها الهواء البارد فغطت طفلها بطرف وشاحها القديم.

لم يكن ثمة مكان تذهب إليه بعد أن فقدت كل شيء بفقدان حبيب العمر .. وحتى النقود التي كانت معها لا تدري أين ذهبت ولا ما هو مصيرها ..

وقادتها قدماها إلى حجرتها القديمة ..

وبرغم كل يأسها وحرمانها وقلبها المحطم الكسير، فقد كان عليها أن تعيش لأجل ابنها .. من أجل الذكرى العطرة الوحيدة الباقية من حبيب العمر. وتذكرت قوله لها يوم واساها في وفاة أمها وقال لها: هذا هو قدرنا .. أن نودع أعزاءنا وأحباءنا ونعيش بدونهم، فالحياة لا تتوقف أبداً.

وهو قد مضى .. رحل عنها .. وما كانت تستطيع أن تلحق به، لأجل ذلك الصغير، الملاك الذي سيرضع حياته من جوفها.

وضمتها الحجرة الصغيرة من جديد.. عادت إليها وحيدة عاجزة متألمة .. وتمددت فوق فراشها القديم وطفلها بين أحضانها وقد انكمشت حوله، كأنها تصد عنه كل أحزان العالم.

وأفاقت على صوت دقات فوق بابها .. لا تدري كم من الساعات استلقت نائمة .. كان الطفل قد استيقظ وبقي ساكنا صامتا كأنه خشى من إزعاجها .. دق الباب مرة أخرى بوهن ولكن بالحاح ..

غادرت فراشها وهي تمنع دموعها من التساقط .. وعندما فتحت الباب فوجئت به .. والد سامح .. جد الطفل ..

وقفت مسمرة أمامه .. ترى فيه طيفاً من ملامح الحبيب الذي مضى ولن يعود أبداً. أفسحت طريقاً للرجل الذي انكسرت النظرات في عينيه وانحنى ظهره كأنه ينوء بحمل ثقيل .. خطا داخل الحجرة بخطوات مهتزة صوب الطفل .. مضى يتأمله وشفتاه ترتعشان .. وأجهش بالبكاء ورفع الطفل فوق ذراعيه ودفن وجهه في صدره وراح يبكي بنشيج مكتوم ..

راقبته وفاء في صمت .. بعد لحظات تمالك الرجل

نفسه وكف عن البكاء ومسح عينيه .. التفت لها وهو يضم الطفل إلى صدره وقال لها : ذهبت إليك في المستشفى للإطمئنان عليك فأخبروني أنك انصرفت وغادرتها.

عادت الدموع تترقرق في عينيه وقال وهو يمسحها : سامحيني يا ابنتي .. لم يتسع الوقت لي للاطمئنان عليك، فقد كان علي « أن أودع سامح إلى مثواه الأخير.

أهاجت الكلمات شجونها فلم تحس إلا ودموعها تنسال بصمت ساخنة فوق وجنتيها.. احتضن الطفل أكثر وقال بوهن: سامحيني يا وفاء .. لم أكن أتصور أن حبك لابني سيصل إلى هذه الدرجة .. ظننتك فتاة ماكرة خدعته بألاعيبها طمعا فيما سيرثه من مال وأنه انخدع بك .. لم أكن أدري أن هناك رباطاً أقوى قد جمع قلبيكما، وأنني حرمت نفسي من السعادة والهناء بقربكما.. طالما تمنيت أن أقيم لسامح ليلة عرس لم يشهدها إنسان من قبل.. كنت سأؤثث له أفخم الشقق أو أشتري له فيلا أو قصراً هدية عرسه .. كنت أريد أن أمنحه السعادة لأقصى حدودها.. ولم أتصور يوماً أن سعادة ابني لن تكون في مالي..

ومسح دموعه بطرف كمه وقال : ما كنت أتمنى أن يغادر الدنيا وهو غير راضٍ عني.. قالت باكية : سامح لم يعتب عليك أبداً .. كان يلتمس لك العذر ..

ـــ لا عذر لي يا بنيتي.. أنا نظرت اليكما نظرتـي إلى آثنين يخوضان معركة ضدي كان يجب عليّ أن أنتصر فيها مهما كان الثمن .. كنت أظن أني على حق، وكنت أريده أن يعود لي نادماً مستغفراً .. وها أنا الآن أسكب ندمي قرباناً لروحه عسى أن تصفح عنى وتغفر لي خطأي.

ونظر إلى الطفل بعيون مبللة بالدموع وقال : انه يشبه والده تمام الشبه .. إن الله الذي حرمنا من سامح لم يشأ إلا أن يخفف لوعتنا بابن جديد .. ماذا أسميتيه يا ابنتي ؟

اجابت بعيون ممتلئة بالدموع : سامح.

اغمض الأب عينيه ألماً .. وأحست وفاء ان كل جزء في كيانه يرتعش .. وخشيت عليه أن ينهار ويسقط فوق الأرض فأسرعت تعينه على الوقوف .. ضمها بذراعه وراح يبكي فوق كتفها بكاء مراً ..

قالت بإشفاق : كفى بكاء .. لأجل سامح الصغير .. من الآن يجب ألا يبكي أحد أمامه.

مسح الأب دموعه وقال بصوت متهدج : معك حق يا ابنتي .. منذ الآن يجب ألا يبكي أحد أمام سامح .. إن سامح لم يك أبداً .. وعلينا ألاَّ نريه دموعنا .. سامح مضى وذهب بعيداً عنا .. اختاره القدر ليرينا أن لا شيء يدوم في هذه الدنيا .. ولكنه وهبنا سامح آخر عوضنا عنه .. وهبنا ابناً ثانياً لن يرى منذ الآن إلا كل سعادة وهناء ..

واستدار نحوها وعيناه تشعان ببعض من بريق الحياة وقال راجياً : هيا يا ابنتي .. دعينا نغادر هذا المكان.

تراجعت للخلف بذعر قائلة : إنني لن أغادر هذا المكان أبداً .. ولا ابني.

قال لها متوسلاً : إنني رجل عجوز مريض وحيد .. لم يعد لي أحد في هذا العالم بعد رحيل سامح سواكما .. فلا تحرميني من الأمل الباقي في حياتي.

ترددت .. أحست بضعف ووهن .. كان مشهد الأب أمامها وهو يرجوها متوسلاً يصيبها بألم لا قلب لها على دفعه .. وما كانت تستطيع أن ترفض له طلباً وهو بتلك الحال من الحزن ..

قالت بوهن : إن كنت تريد الطفل فخذه .. خذه ودعني أراه كل يوم ولو دقائق قلائل .. أنت أقدر مني على منحه كل متع الحياة أما أنا فما أشقاه معي.

هتف برجاء : وكيف أحرم طفلك منك .. أو أحرمك منه .. طفلك لن يكون إلا بك .. وأنا حرمت سامح من سعادته وسعادتي بقربنا معا .. فلا تدعيني أكرر غلطتي ثانية.

قالت ووهنها يشتد : ولكن ..

قاطعها بحنان وهو يقبل الطفل : لو كان سامح موجوداً لما اعترض .. صدقيني .. إنه الآن ينظر إلينا من مكانه بأعلى ويرجوك أن تجيئي معي .. أن تمنحي قليلاً من السلوى والعطف لرجل عجوز مريض هدته المصائب والأحزان .. أعلم علم اليقين أنك أحببت ابني حبا لا زيادة بعده .. وأن حبه ساكن في قلبك حتى بعد رحيله، فاسأليه .. اسألي حبه الباقي في قلبك إن كان يسمح لي أن أعيش بقربكما ما تبقى لي من أيام .. فأعوض الصغير ما حرمت منه ابني.

واشرق الطفل الصغير بابتسامة واسعة، تماماً كما كان سامح يبتسم إذا ما غمره السرور والرضا .. كأنه ينقل

رسالة من حبيب العمر بالرضا والتسامح .. فإن قلبه لم يعرف الكره أو الضغينة أبداً.

واحتضنت وفاء الطفل وقد تيقنت من صاحب الرسالة بالموافقة، فمن أجل حبيب العمر ستعيش وتلبي له رجاءَه وابتسامته .. حتى تراه مرة أخرى في رجولة طفلها، الذكرى الغالية الباقية، حتى نهاية العمر من حبيب العمر.

حبيب العمر

هي عاملة بسيطة في مشغل تريكو.. وهو شاب ثري وسيم.. انقذته من الموت.. فجمعت الحادثة بين قلبيهما برباط لا ينفصم..

وبسبب حبه لها ترك خطيبته.. وضحى بثروة والده الرافض.. وذهب ليعيش مع حبيبته في مكان متواضع حقير..

وعاشا لحظات مسروقة من السعا
يطل الحزن برأسه.. ويختطف الموت

دار الجيل
بيروت